البيزنطيون بين علاج الأطباء و معجزات القديسين
دراسة في ضوء هجيوجرافيا العصر البيزنطي الباكر

د. عبد العزيز رمضان*
كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر

تعد كتابات سير القديسين Hagiography أحد أهم المصادر غير التقليدية لتاريخ الإمبراطورية البيزنطية، إذ أنها نوع من القصص الدينى الشعبى كتبه رهبان ورجال دين بيزنطيون، بعضهم معلوم وآخرون مجهولون، يسردون فيه ويخلدون من خلاله سير القديسين البيزنطيين ومعجزاتهم كما سمعوها وتناقلتها الألسن جيلا بعد جيل، أو ربما كما تخيلوها هم أنفسهم، ومن ثم تكمن قيمته في أنه أشبه بأدب السير الشعبية الذى، وإن امتلأ بالمعجزات والخوارق، يقدم عبر صفحاته مادة وفيرة وفريدة من نوعها عن الحياة اليومية للمجتمع البيزنطى، والأهم أنه يعكس ثقافة هذا المجتمع، والأفكار والآراء والاتجاهات التقليدية الشعبية السائدة فيه.[1]

---

* يتقدم الباحث بخالص الشكر والتقدير إلى العالمين الجليلين ا.د. زبيدة عطا، ا.د. قاسم عبده قاسم على تفضلهما بقراءة هذا البحث، رغم ضيق وقتهما، وتنقيحه وتزويدي بملاحظتهما السديدة التي أفدت منها.

(١) جذب الأدب الهجيوجرافي البيزنطي اهتمام عدد كبير من الباحثين المحدثين، فوضعوا دراسات عن هذا النوع من الأدب وأشكاله وعناصره وأنماطه التقليدية، ومن بين هذه الدراسات ما عنى بطرح إشكاليات البحث فيه وكيفية استخدامه وتوظيفه في خدمة دراسة التاريخ البيزنطي بمجالاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية، ومنها دراسة إيفيلينى باتلاجين Evelyne Patlagean التي تناولت إشكاليات توظيف الهجيوجرافيا في خدمة التاريخ الاجتماعى، واستعرضت فيها مناهج دراسة الهجيوجرافيا في الغرب الأوروبى، بداية من المنهج اليقينى المرتبط برجال وآباء الكنيسة، إلى المنهج العقلانى الذي يتخذ موقفا سلبيا ورافضا، وتقترح هذه الدراسة أطرا ومناهج نظرية لدراسة الهجيوجرافيا والاستفادة منها في التاريخ الاجتماعى البيزنطي، لعل أهمها –من وجهة نظر الكاتبة– ما عبرت عنه بقولها :"على المؤرخ عند البدء في بحثه واستقصائه أن يتبنى موقفا ناقدا من الهجيوجرافيا، ومن هذا المنظور عليه اتباع منهج تحليلى تركيبى، بدلا من اتباعه المنهج اليقيني المعتاد الذي أثبت فشلا ونقصانا"، وخلصت إلى بيان أهمية الأدب الهجيوجرافي بقولها :"إن أهمية الهجيوجرافيا لا تكمن في كونها "أدبا شعبيا popular literature" فقط، بل أيضا لأنها كتبت ووجهت للمجتمع بأكمله"، و"أن أية محاولة للبحث في المستويات الدنيا للحياة الاجتماعية البيزنطية، خاصة خلال العصر الباكر، لابد وأن تصطدم بإغراءات الأدب الهجيوجرافي، فهو وفير وغزير، ويكون مواتيا وبليغاً وقتما تكون أرشيفات الوثائق غير متواجدة عمليا، أوعندما تكون المصادر الأخرى صامتة أو مقتضبة".

وفي مطلع القرن العشرين، وضع هيبوليتوس ديليهـاى Hippolytos Delehaye دراسة هامة عن الكتابات الهجيوجرافية [٢]، استعرض فيها طبيعة هـذه الكتابـات وأصـولها ومناهجها والعناصر التقليدية المتضمنة فيها والإتجاهات النمطية لكتابها، ووضع تصنيفا لفئات القديسين البيزنطيين، وكان أول فئتين فيه: (١) القديسون المشتغلون بـالعلاج علـى وجـه

Patlagean , E.,"A Byzance : Ancienne hagiographie et histoire sociale" , *Annales* 23 (1968) , pp. 106-126 , repr. Idem , "Ancient Byzantine Hagiography and Social History" , trans. J. Hodgkin , *Saints and their Cults : Studies in Religious Sociology , Folklore and History* , ed. S. Wilson ,Cambridge : Cambridge University Press , 1985 , pp. 101-121.

ومن أهم هذه الدراسات أيضا دراسة هالكين Halkin التي أظهرت عمليا إمكانية الإستفادة من الهجيوجرافيا في دراسة بعض الأحداث التاريخية وتحديد وقت وقوعها، وخلص فيها إلى القول: "ممـا لايقبـل الـشك أو الجدل أن الهجيوجرافيا البيزنطية تكشف، في المقام الأول، عن العقلية الدينية للبيزنطيين، كما أنهـا تحتـوى على كم ثمين من المعلومات عن تاريخ الحياة اليومية في بيزنطة وأقـاليم الإمبراطوريـة، وعـن تـاريخ المؤسسات، وتاريخ الطب، وتاريخ الفن، باختصار عن التاريخ عامة، وعن العلوم المساعدة له".

Halkin , F., 'L' hagiographie Byzantine au service de l' histoire" , *Proceedings of the XIIIth International Congress of Byzantine Studies* , London :Oxford University Press , 1967 , pp. 345-354.

أنظر الترجمة الإنجليزية لهذا البحث :

Halkin , F., "Byzantine Hagiography in the Service of History" , trans. D. Jenkins ,www.byzantine.nd.edu/Halkin.html

ومن الدراسات التي وظفت الشاهد الهجيوجرافي للعصر البيزنطي الباكر عمليا في دراسة جوانب معينة :

Magoulias , H.J., "The Lives of Byzantine Saints as Sources of Data for the History of Magic in the Sixth and Seventh Centuries A.D., Sorcery , Relics and Icons", *Byzantion* 37(1967), pp.228-69 ; Idem ,"The Lives of Saints as Sources of Data for the History of Byzantine Medicine in the Sixth and Seventh Centuries" , *Byzantinische Zeitschrift* (1969) , pp.127-150 ; Idem , " The Lives of Byzantine Saints as Sources for Byzantine Agrarian Life in the Six and Seventh Centuries" *Greek Orthodox Theological Review* 35/1(1990), pp.59-70 ; Kazhdan , A., "Byzantine Hagiography and Sex in the Sixth to Twelfth Centuries" , *Dumbarton Oaks Papers* 44(1990) , pp.131-44 ; Kazhdan , A., & Maguire , H., "Byzantine Hagiographical Texts as Sources on Art" , *Dumbarton Oaks Papers* 45(1991), pp.1-22.

وأنظر القائمة البيبلوجرافية المستفيضة "Byzantine Saint : A Bibliography" التي أعدها بول هالسال Paul Halsall على موقع جامعة شمال فلوريدا : www.unf.edu . وعن سير ومعجـزات القديـسين البيزنطيين المنشورة على شبكة الإنترنت، أنظر : عبد العزيز رمضان، "مـدخل إلـى مواقـع الدراسـات البيزنطية على شبكة الإنترنت"، حولية التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثالث، ٢٠٠٣م، ص٧٥-١٠٣.

(٢) Delehaye , H., *The Legends of the Saints: An Introduction to Hagiography*, trans. V.M. Crawford, University of Notre Dame Press, 1961.

أنظر النص الكامل لهذا الكتاب على موقع جامعة فوردهام :

http://www.fordham.edu/halsall/basis/delehaye-legends.html

القصر، (٢) القديسون متعددو البراعات، وهو تصنيف يوضح إلى أى مدى كان العلاج المقدس يمثل دورا ووظيفة أساسية للقديس البيزنطي [٣]، فإذا كانت كافة معجزات قديسى الفئة الأولى، أو على أقل تقدير الغالبية العظمى منها، مرتبطة بمهمة العلاج المقدس، فإن المطالع لسير قديسى الفئة الثانية المتعددى البراعات، سيجد كذلك أن جانبا كبيرا من معجزاتهم إرتبط بذات النوع من العلاج، فعلى سبيل المثال كانت نحو ٤٠% من معجزات القديسة ثيكلا St. Thecla علاجية[٤]، وحتى في الفئات الأخرى نجد أن مهمة العلاج لم تغب تماما عن معجزات قديسها، فنحو ثلث معجزات القديس المحارب ديمتريوس السالونيكى St. Demetrius of Thessalonike كانت علاجية.[٥]

---

(٣) كذلك وضع بيتر براون، في دراسته المتخصصة عن وظائف القديس في القرنين الرابع والخامس الميلاديين، العلاج المقدس على رأس هذه الوظائف، تلاها طرد الأرواح الشريرة، وحماية المدن ومواطنيها من الأعداء، ثم النصح والإرشاد الدينى، وأخيرا الوساطة والفصل في المنازعات.

Brown , P., "The Rise and Function of the Holy Man in Late Antiquity" , *Journal of Roman Studies* 61(1971) , pp.80-101, repr. Idem , *Society and the Holy in Late Antiquity* , Berkeley & Los Angelos , 1982 , pp.103-152.

(٤) *Collections greques de miracles : sainte Thècla , Saints Côme et Damien , saints Cyr et Jean (extraits) , saint Georges* , trad. A.J. Festugière , Paris , 1971 , no.I.

من الملاحظ أن هذه الترجمة لم تتبع نظام أرقام الصفحات، بل استخدمت الأرقام اللاتينية لتميز كل مجموعة معجزات عن الأخرى، واستخدمت في كل مجموعة أرقام المعجزات.

Davis , S.J., *The Cult of Saint Thecla : A Tradition of Women s Piety in Late Antiquity* , Oxford , 2001 , pp.42-3 ,73-80 , 179-180 ; Seiber , J., *The Urban Saint in Early Byzantine Social History*, BAR Supplementary Series 37 , Oxford , 1977 , p. 82.

ولدت ثيكلا بمدينة قونية Iconium بآسيا الصغرى في القرن الأول الميلادي، ورافقت القديس بولس وتتلمذت على يديه، وكانت أول من لقى الشهادة في المسيحية من الإناث، لذا كرمت ونالت عبادتها شهرة واسعة في أرجاء عالم البحر المتوسط في الفترة ما بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين، خاصة بين النساء، لكونها رمزا للعذرية والطهارة . وكاتب المعجزات هو باسيل السلوقى Basil of Seleucia، أسقف سلوقية خلال الفترة (٤٤٨-٤٦٨م)، ومعظم المعجزات التي رواها ترجع إلى الفترة التي عاشها، وإن كانت السيرة ذاتها وبعض معجزاتها، مستمدة من "أعمال القديس بولس الرسول Acta Pauli"، التي كتبت في أواخر القرن الثانى الميلادي. Davis , *Cult of St. Thecla* , v-vi , 4-8.

(٥) *PL.* 129 , cols 715-26.

وفقا لكاتب هذه السيرة، وهو أسقف عاش في النصف الأول من القرن السابع الميلادي يدعى يوحنا John، ولد القديس ديميتريوس في النصف الأول من القرن الثالث الميلادي، واستشهد في اضطهاد الإمبراطور دقلديانوس للمسيحيين، فكرم وعد حاميا لسالونيك، وتتضمن معجزاته الدفاع عنها مرارا ضد السلاف، الذين أطلق عليهم كاتب السيرة مسمى "برابرة"، وقد ترجمت سيرته من اليونانية إلى اللاتينية على يد أناستاسيوس Anastasius Bibliothecarius، أمين مكتبتى البابا هادريان الثانى (٨٦٧-٨٧٢م) والبابا يوحنا

وتهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على الأسباب التي جعلت البيزنطيين يرون في العلاج المقدس وظيفة أساسية للقديس البيزنطي، وطبيعة العلاقة التي نشأت بين هؤلاء القديسين ومحترفي مهنة الطب في بيزنطة، وكيف صورها كتاب الأدب الهجيوجرافي أنفسهم، وإلى أى مدى وجدت هذه الوظيفة صدىً لدى البيزنطيين على اختلاف فئاتهم وطبقاتهم، ثم مدى تأثير ذلك كله سلبا أو إيجابا على مكانة الطب التقليدي ووضع محترفيه داخل المجتمع البيزنطي.

وعند محاولة البحث عن أسباب اقتران وظيفة العلاج المقدس بالقديس البيزنطي، نجدها مرتبطة في المقام الأول بطبيعة ثقافة المجتمع البيزنطي والعناصر المؤثرة فيها، وأعنى هنا التراث اليونانى القديم والمسيحية بوصفهما أهم العناصر المكونة لهذه الثقافة، خاصة وأن كلا منهما أسهم بدرجة كبيرة في نشأة وتطور مفهوم القداسة وعبادة القديسين في الفكر الدينى الشعبى في بيزنطة. فالمعروف أن الكنيسة في الفترة الباكرة من تاريخها لم تنبذ التراث والفكر اليونانى القديم بصورة مطلقة، بل اختلطت بهما وأخذت منهما ما يكفل لها النجاح في مهمتها التبشيرية بين مجتمعات ورثت هذا التراث والفكر وتأصلت فيها جذورهما، وهو الأمر الذي درسه الباحث اليونانى ديميتريوس قونسطنطيلوس Demetrios Constantelos من زاوية تأثير العبادات اليونانية القديمة في المجتمع البيزنطي، ووصل من خلالها إلى نتيجة مؤداها: "إن الكنيسة، خلال مجهودها لنشر الإيمان المسيحى، لم تنغلق تماما بعامة الناس داخل المفاهيم والمصطلحات الجديدة، ولم ترفض بصورة مطلقة كل ما اشتق من الرموز والمشاعر الدينية الوثنية".[٦]

وفيما يتعلق بتأثير التراث اليونانى على نشأة عبادة القديسين في بيزنطة، فقد عبر عنه أحد مؤرخى الكنيسة في القرن الخامس الميلادي وهو ثيودوريتوس القيروصى[٧]،

الثامن٨٧٢-٨٨٢م)، والذي أهدى هذه الترجمة للملك الفرنجى شارل الأصلع (٨٢٣-٨٧٨م) في عام ٨٧٦م. عن القديس ديمتريوس وعبادته، أنظر:

Woods , D., " Thessalonica s Patron : Saint Demetrius or Emeterius ?" , *Harvard Theological Review* 93(2000) , pp.221-34 ; Walter , Ch., *The Warrior Saints in Byzantine Art an Tradition* , Aldershot, 2003 , pp 67-93.

(٦) Constantelos , D.J. , "Byzantine Religiosity and Ancient Greek Religiosity", *The Past in Medieval and Modern Greek Culture* , ed. S. Vryonis (= *Byzantina Kai Metabyzantina* 1) , Malibu , 1978 , pp.135-151 , esp. 142.

(٧) كان من رجال اللاهوت في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي، عين أسقفا لـ "قيروص" القريبة من مسقط رأسه بأنطاكية، وقد أمن بناسوتية المسيح وأتبع نسطوريوس، مما أدى لنفيه إلى روما عام ٤٤٩م، ومات بها عام ٤٥٨م مخلفا خمسة وثلاثين مؤلفا، معظمها يتعلق بقضايا لاهوتية وعقائدية، وأشهر أعماله

Throdoretos of Cyrus، عندما ألمح إلى أن الكنيسة إذا كانت قد تبنت بعض مظاهر العبادات الإغريقية، فذلك لتلبى بعض الاحتياجات النفسية لرعاياها. وتحدث ثيودوريتوس بوجه خاص عن تقليد القديسين والشهداء الذي يشبه التكريم الذي قدم للأبطال وأنصاف الآلهة الإغريق، وفي هجومه على الوثنيين كتب : "إن الآخرين قد يسخرون من الممارسات المسيحية المبجلة للشهداء والقديسين، لكن على الإغريق أن يكونوا آخر من يسخر، لأن لديهم أيضا عبادة أبطالهم وأنصاف آلهتهم[٨]، أمثال هرقليس Herakles [٩] وأسكليبيوس Asklepios [١٠] و ماخون Machaon [١١] وغيرهم" [١٢]، ورغم أن ثيودريتوس هنا أراد الدفاع

"التاريخ الكنسى" الذي يقع في خمسة كتب، ويغطى الفترة من ٣٢٥م حتى ٤٢٨م. دونالد نيكول، معجم التراجم البيزنطية، ترجمة وتعليق حسن حبشى، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٢٢٠-٢٢.

(٨) شكلت عبادة الأبطال وأنصاف الآلهة جانبا مهما في معتقدات الإغريق الدينية الشعبية، وتدور هذه العبادة حول بشر تم تقديسهم بعد وفاتهم، ونسجت حول قبورهم وأماكن دفنهم الكثير من المعجزات والأعمال الخارقة، وأعتقد الإغريق أنهم يحيون في قبورهم حياة ملكية رغدة، يمارسون فيها نفس الأعمال والوظائف التي كانوا يشغلونها في حياتهم الدنيا، وكانت قبورهم بمثابة المركز الذي تدور حوله مظاهر وطقوس العبادة، سواء ضمت هذه القبور أجسادهم أو أجزاء منها، حيث اعتقد الإغريق أن أرواحهم تهيم حول هذه القبور لتساعد مريديها وتحميهم وتدرء عنهم الشرور. لمزيد من التفاصيل عن عبادة الأبطال وأنصاف الآلهة الإغريق، أنظر: Guthrie , W.K.C., *The Greeks and their Gods*, London, 1950 , pp.231-5.

(٩) وفق معتقدات الإغريق، كان هرقليس إبنا لكبير الأرباب زيوس Zeus من زوجته البشرية ألكمينا Alkmena، وبالتالى عد نصف إله، بحكم كونه بشريا من ناحية أمه وإلها من ناحية أبيه، ونسجت حوله العديد من الأساطير التي تروى تحمله للآلام والمعاناة والأعمال الشاقة عندما كان بشرا على الأرض، ثم انتقاله بعد ذلك إلى جبل أوليمبوس وزواجه من هيبى Hebe ابنة زيوس وهيرا، وعندئذ اختلف الإغريق حول كونه بطلا ونصف إله أم إلها خالصا كآلهة جبل أوليمبوس، فقدموا له طقوس عبادتين وفقا للطبيعتين المختلف عليهما. Guthrie , *Greeks and their Gods,* pp. 235-41.

(١٠) وفق معتقدات الإغريق، كان أسكليبيوس إبنا للإله أبوللو من كورونيس Koronis البشرية، التي قتلها أبوللو نتيجة زواجها من بشرى آخر، لكنه أنقذ طفله الذي كان داخل أحشائها، وعهد بتربيته إلى القنطوروس خيرون Chiron (كائن خرافي نصفه فرس والنصف الآخر بشرى)، فلقنه الأخير صناعة الطب والجراحة، وبلغت قدراته الخارقة في هذه المهنة القدرة على إحياء الموتى، الأمر الذي أثار غضب زيوس فقتله بأن سلط عليه البرق. وقد لاقت عبادته رواجا كبيرا في كافة أنحاء بلاد الإغريق، وتركزت حول وظيفته الأساسية "العلاج المقدس"، حقيقة أن عبادات بعض الآلهة كأبوللو والأبطال الآخرين كهرقليس ارتبطت في جانب منها بمسألة العلاج المقدس، لكن ظلت لعبادة أسكليبيوس وقدراته العلاجية الصدارة في هذا المضمار، إلى حد أن نقابات الأطباء في بلاد الإغريق كانت تتلقب بـ "الأسكليبيديين Asklepiades".

Guthrie , *Greeks and their Gods*, pp.242-6 ; Cotter , W., *Miracles in Greco-Roman Antiquity : A sourcebook for the Study of New Testament Miracle Stories* , London , 1999 , pp.15-16.

عن الكنيسة في مواجهة هجوم الوثنيين، إلا أنه لم يستطع إنكار تأثر عبادة القديسين بعبادة الأبطال وأنصاف الآلهة الإغريقية، ولعله في تضمينه لأسكليبيوس، إله الطب عند الإغريق، عند مقارنته - أو ربما مقاربته - بين أنصاف الآلهة الإغريق والقديسين [١٣]، يوحي بأن وظيفة العلاج المقدس التي ارتبطت بالقديس البيزنطي مستوحاة، أو على الأقل تأثرت، بذات الوظيفة عند أسكليبيوس اليونانى، وهو الأمر الذي ذهب كاتب سيرة القديسين يوحنا St. John وكيروس St. Cyrus إلى حد بعيد في تأكيده، عندما أطلق مسمى أسكليبيداروم

---

(١١) وفق معتقدات الإغريق، كان ماخون وشقيقه بودالليريوس Podaleirios أبناءً لهرقليس، ورثا عن أبيهما صناعة الطب، وعملا كطبيبين في الجيش الإغريقى . Guthrie , *Greeks and their Gods* , p.242.

(١٢) Adnès , A., & Canivet , P., "Guérisons miraculeuses et exorcismes dans *l' Histoire Philothée* de Théodoret de Cyr" , *Revue de L' Histoire des Religions* 171(1967), pp.53-82 &pp.149-79 ; esp.pp.172-4.

وقد علق مارتن نيلسون، أحد المتخصصين في الديانة اليونانية القديمة، على أثر عبادة الأبطال وأنصاف الآلهة الإغريقية في نشأة وتطور عبادة القديسين، بقوله : "لقد استمرت عبادة الأبطال في ثياب مسيحية، وظلت على قيد الحياة بذات الصيغ، ولم يكن ثمة اختلاف باستثناء أن الشهداء والقديسين كانوا تاليين على الأبطال".

Nilsson , M.P., *Greek Folk Religion* , Gloucester , Mass. , 1971 , pp. 21 ,115.

كذلك ذهب دان دريجفيرز إلى وجود تأثيرات هلينستية وشرقية، سورية ومصرية، في نشأة وتطور القداسة البيزنطية. أنظر:

Drijvers , H.J.W., "Hellenistic and Oriental Origins" , *The Byzantine Saint* , ed. S. Hackel , Birmingham , 1981 , pp.25-33.

(١٣) كذلك من المثير للإنتباه، أن الأبطال وأنصاف الآلهة الثلاثة، الذين ذكرهم ثيودريتوس، ارتبطوا بصورة كلية أو جزئية بالعلاج المقدس، فأسكليبيوس هو إله الطب عند الإغريق، وابنه ماخون كان أيضا طبيبا، كما نسبت لعبادة هرقليس حالات من العلاج المقدس، وعلى ذلك فإن مقاربة ثيودريتوس تظهر تأثيرا إغريقيا واضحا، كما تؤكد على أهمية العلاج المقدس كوظيفة اجتماعية أساسية للقديسين البيزنطيين. أنظر الشذرات المجمعة من المصادر اليونانية والرومانية عن معجزات أسكليبيوس وهرقليس العلاجية :

Cotter , *Miracles*, pp.12-30.

ومن المثير للإنتباه أيضا، أن أشهر القديسين البيزنطيين المشتغلين بمهمة العلاج المقدس على وجه القصر، والذين أرتبطت أضرحتهم كلية بهذه المهمة، كالقديسين كوزماس St. Cosmas ودامیان St. Damian وكيروس St. Cyrus، كانوا قبل استشهادهم ورفعهم إلى مرتبة القداسة أطباء، درسوا الطب في مدرسته الشهيرة بالإسكندرية، ومارسوا حرفته أثناء حياتهم، وحتى القديس أرتيميوس St. Artemios الذي لم يكن كذلك، كان لابد من ربطه بالطب بأى شكل، ولذلك لم يكن غريبا أن قصة استشهاده على يد الإمبراطور جوليان عام ٣٦٢م تضمنت رفضه أمرا إمبراطوريا بتقديم القرابين لزيوس وأبوللو وأسكليبيوس، ويبدو أن تضمين أبوللو وأسكليبيوس هنا كان متعمدا، لتبرير تحول أرتيميوس إلى قديس معالج بعد الموت، والأهم أنه تضمين يعكس تأثيرا إغريقيا واضحا. أنظر : حاشية ١٧، ١٨، ٢٣.

Asclepedarum على ضريح القديسين، واستخدم مرارا مسمى "الطبيب نصف الإله" دون أن يعتبر ذلك مصطلحا مخالفا للمسيحية[١٤].

وواقع الأمر، أن دراسة مظاهر وممارسات العلاج المقدس في عبادة القديسين البيزنطيين، كما عكسها كتاب هجيوجرافيا العصر البيزنطي الباكر، تظهر تأثرا واضحا بالتراث الدينى اليونانى القديم، خاصة عبادة أسكليبيوس. ولعل أحد أهم هذه المظاهر يتمثل في استمرار فكرة مراكز العلاج المقدس المرتبطة بشخصيات مقدسة[١٥]، فأضرحة القديسين البيزنطيين، خاصة المشتغلين منهم بالعلاج المقدس، ظلت تمثل امتدادا لتلك المراكز، يحج إليها البيزنطيون، فرادى وجماعات، إلتماسا للشفاء [١٦]، ومن أشهر هذه المراكز : ضريح

---

(١٤) Festugière , *saints Cyr et Jean* , mir.15,17,30 ; Seiber , *Urban Saint* , p.89.

من الملاحظ أيضا، أن مسمى "الاسكليبيديين Asklepiades"، الذي كان يطلق على نقابات الأطباء في بلاد الإغريق، ظل يستخدم خلال العصر البيزنطي الباكر للإشارة إلى الأطباء، فقد استخدمه إفاجريوس في القرن السادس، عند إشارته إلى موت شخص يدعى جريجورى كان مريضا بالنقرس لأنه " تناول دواءً مركبا مما يسمى Hermodactylus، كان قد زوده به أحد الأطباء Asclepiades ".

Evagrius Scholasticus , *The Ecclesiastical History* , trans. M.& M. Whitby , Liverpool , 2000 , p.316.

وفي هذا السياق يذكر نوتون، دون أن يشير إلى مصدره، أن آخر طبيب زعم بأنه تابع للاسكليبيديين Asclepiades. عاش حوالى سنة ٣٥٠م، وآيا كانت مصداقية هذه الإشارة إلا أن استخدام إفاجريوس، والبطريرك صفرونيوس، كاتب معجزات القديسين كيروس ويوحنا في القرن السابع، لهذا المسمى يشير إلى استمرار استخدامه خلال العصر البيزنطي الباكر.

Nutton , V., "From Galen to Alexander : Aspects of Medicine and Medical Practice in Late Antiquity" , *Dumbarton Oaks Papers* 38(1984) , pp.1-14, esp.p.4.

(١٥) انتشرت مراكز العلاج المقدس في بلاد الإغريق، وكان المركز الرئيسى معبد أسكليبيوس في إبيداوروس Epidauros، كما وجدت له مراكز أخرى في روما Rome وأثينا Athens وكورنثة Corinth وبرجامة Pergamon وأزمير Smyrna وكوس Kos . أنظر: Guthrie , *Greeks and their Gods*,246-53.

ويعلق نوتون على تأثر المسيحية بفكرة مراكز العلاج المقدس الإغريقية بقوله : "إن المسيحية لم تستعر من عبادة الشفاء الوثنية وظيفتها كمصدر للعلاج الطبى فقط، بل استعارت أيضا لغتها وتخيلاتها بل وحتى مراكزها"، وأشار إلى أن أكثر مراكز عبادة أسكليبيوس وهرقليس شهرة، في إبيداوروس وروما وبرجامة، تحولت بعد الاعتراف بالمسيحية إلى كنائس ومراكز للعلاج المقدس في صيغته المسيحية الجديدة .

Nutton , *Galen to Alexander*, p. 7.

(١٦) عن الحج البيزنطي إلى أضرحة القديسين التماسا للشفاء المقدس، أنظر:

Vikan , G., *Byzantine Pilgrimage Art* , Washington , D.C., 1982 , pp. 4-5 , 30-4 ; Maraval , P., "The Earliest Phase of Christian Pilgrimage in the Near East(before 7th Century)" , *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002) , pp.63-74.

وعن هذا الحج منذ القرن الثامن الميلادي وحتى عصر أسرة باليولوجوس، أنظر:

القديسين كوزماس St. Cosmas ودراميان St. Damian بالقسطنطينية[١٧]، وضريح القـديس أرتيميوس St. Artemios بكنيسة القديس يوحنـا برودرومـوس St. John Prodromos بالقسطنطينية[١٨]، وضريح القديس ديمتريوس بسالونيك[١٩]، وضريح القديس يوحنا St. John

---

Talbot , A.M., 'Pilgrimage to Healing Shrines : The Evidence of Miracle Accounts" , *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002) , pp.153-72.

وعنه في العصر المتأخر، انظر:

Talbot , A.M., "Healing Shrines in Late Byzantine Constantinople" , The *"Constantinople and its Legacy"* Lecture Series. Toronto , 2000 , pp.1-24. (repr.: Idem , *Women and Religious Life in Byzantium* , Aldershot , 2001 , no. XIV).

(١٧) عرف ضريح القديسين كوزماس ودراميان باسم Kosmidion، ويقع داخل الكنيسة التي بنيت وكرست لهما في ضاحية أيوب Eyup (نسبة إلى أبى أيوب الأنصارى) خارج أسوار القسطنطينية خلال عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى، ويبدو أن الكنيسة والضريح لم يظلا على حالتيهما، حيث يشير بروكوبيوس إلى أن مجهودات الإمبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥م) الإنشائية تضمنت إعادة بناء الكنيسة وتوسيعها وإضافة ملحقات جديدة بها، وتشير الحولية الفصحية إلى أن الكنيسة تعرضت للحرق عام ٦٢٣م أثناء هجوم الآفار على القسطنطينية، ولم يتم إعادة بنائهما إلا في أوائل القرن الثامن الميلادي. وقد نسبت إلى هذا الضريح الكثير من المعجزات الشفائية عبر تاريخ الامبراطورية البيزنطية، ولذلك شهد إقبالا كبيرا من المرضى الراغبين في تلقى العلاج المقدس، وظل الضريح حتى الفتح العثمانى عام ١٤٥٣م، حيث حول موضعه إلى مسجد حمل اسم أبى أيوب الأنصارى.

Procopius , *The Buildings* , trans. H.B.Dewing & G.Downey , Loeb Classical Library 343 , Cambridge Mass. & London , 1971 , p.63 ; *Chronicon Paschale* 284-628A.D , trans. M.&M. Whitby , Liverpool , 1989 , p.180 ; Talbot , A-M., "Kosmas and Damian Monastery" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II , Oxford , 1991 , p.1151 ; Ozaslan , N., "From the Shrine of Cosmidion to the Shrine of Eyup Ensari" , *Greek , Roman and Byzantine Studies* 40 (1999) , pp. 379-99.

ووفقا لكاتب المعجزات المجهول، عاش القديسان الشقيقان كوزماس ودراميان في منتصف القرن الثالث الميلادي، وتعلما الطب في مدرسته بالإسكندرية ومارساه، ويشير كاتب المعجزات إلى أنهما كانا لا يتقاضان أجرا عن علاج االمرضى رغبة منهما في تكريس حرفتهما لنشر المسيحية، ولذلك لقيا الشهادة معا على يد والى مصر عقب صدور قرار الإمبراطور دقلديانوس باضطهاد المسيحيين، ونقلت رفاتهما من الإسكندرية إلى القسطنطينية في عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى . أنظر: المخطوط الأصلى لسير القديسين الشهداء قزمان ودراميان، مكتبة المحبة، القاهرة، ٢٠٠٠م ؛ السنكسار القبطى، جزءان، جـ٢(٢٢ بؤونة)، مكتبة المحبة، القاهرة، ١٩٧٢م ؛ إيفانز أولبرى، قديسو مصر حسب التقويم القبطى، ترجمة وتعليق ميخائيل مكسى إسكندر، مكتبة المحبة، القاهرة، ٢٠٠٠م، ١١٨-١١٩. ومن الملاحظ أن هناك روايتين لسيرة القديسين، إحداهما ضمنت في السنكسار القبطى، والأخرى كتبت باليونانية بواسطة كاتب مجهول، وقد اعتمد الباحث على الروايتين. وعن الحج إلى ضريح القديسين كوزماس ودراميان في العصر المتأخر، أنظر: Talbot , *Healing Shrines* , pp.7-9.

(١٨) كان أرتيميوس دوقا doux (قائدا للحامية الرومانية) بمصر، وقد تردد ذكره في المصادر التاريخية بدءً من عام ٣٥٠م، وفي عام ٣٥٦م كلفه الإمبراطور قسطنطيوس بإحضار رفات الرسل تيموثى Timothy

of Ephesos بإفسوس [٢٠]، وضريح القديسة ثيكلا St. Thecla بسلوقية Seleucia [٢١]، وضريح القديس مينا St. Menas بالإسكندرية [٢٢]، وضريح القديسين يوحنا St. John و كيروس St. Cyrus بالإسكندرية[٢٣].

واندروس Andrew ولوقا Luke إلى القسطنطينية، وفي عام ٣٦٠م عين دوقا لمصر. ويشير مؤرخ القرن الرابع أميانوس ماركيللينوس إلى أنه أُعدم في إنطاكية عام ٣٦٢م على يد الإمبراطور جوليان بعد أن ساق إليه السكندريون اتهامات ضد أرتيميوس، ورغم أن هذه الاتهامات غامضة، إلا أنها تشير إلى أنه مات شهيدا. وهناك روايات تشير إلى أن جوليان أعدمه لتعمده تدمير العديد من التماثيل الوثنية داخل فناء معبد سرابيس، ولأنه رفض أمرا إمبراطوريا بتقديم الأضحيات والقرابين لزيوس وأبوللو وأسكليبيوس. وقد نقلت رفاته من إنطاكية إلى القسطنطينية في بداية القرن السادس الميلادي، ووضعت في ضريح داخل كنيسة القديس يوحنا برودروموس الواقعة في حي أوكسيا Oxeia بالقسطنطينية.

Ammianus Marcellinus ,*The Later Roman Empire (A.D.354-378)* , trans. W. Hamilton , Penguin Books , London , 1986 , pp.246; *Chronicon Paschale* , p.39 : Nesbitt , J.W. , "Introduction" , *The Miracles of St. Artemios : A Collection of Miracle Stories by an Anonymous Author of Seventh-Century Byzantium* , trans. V.S. Crisafulli , Leiden – New York – Köln , 1997 , pp.1-27 , esp.1-5 ; Kazhdan , A., & Ševčenko , N.P.,"Artemios", *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I , , Oxford , 1991 , pp.194-5 ; Mango , C., "On the History of the Templon and the Martyrion of St. Artemios at Constantinople". *Zograf* 10(1979) , pp.1-13. (repr. : Idem , *Studies on Constantinople* , Aldershot , 1993 , no.XV).

ورغم أن كاتب المعجزات مجهول، إلا أنه قدم فيها إشارات تدل على أنه عاش خلال القرن السابع الميلادي، ففي إحدى المعجزات (رقم ٣٢) تحدث عن علاج مريض عند ضريح القديس خلال عهد موريس (٥٨٢-٦٠٢م)، وأرخ عددا من المعجزات الأخرى (أرقام ١٧، ١٨، ٢١، ٣٤) بعهد هرقل (٦١٠-٦٤١م)، وفي معجزة أخيرة (رقم ٢٣) أشار إلى علاج قس في العام الخامس عشر من عهد قنسطانز الثاني (٦٤١-٦٦٨م)، أى عام ٦٥٦م تحديدا. Nesbitt , *Introduction* , pp. 6-7.

(١٩) تشير المصادر إلى أن ليونتيوس Leontios والى سالونيك إبان عهد الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى، عثر على رفات القديس بسالونيك، فشيد له كنيسة ضمت ضريحه الشهير حوالى عام ٤١٢-٤١٣م، وظلت تمثل أحد مراكز الحج الهامة عبر فترات التاريخ البيزنطي اللاحقة . لمزيد من التفاصيل، أنظر:

Gregory , T.E., "Demetrios , Church of Saint" , T*he Oxford Dictionary of Byzantium* , I , Oxford , 1991 , pp.604-5 ; Kazhdan , A., & Ševčenko , N.P., "Demetrios of Thessalonike" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , Oxford , I , 1991 , pp.605-6.

وعن الحج إلى ضريح القديس ديميتريوس، أنظر:

Bakirtzis , C., "Pilgrimage to Thessalonike: the Tomb of St. Demetrios" , *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002) , pp.175-92.

(٢٠) كان يوحنا الإفسوسى رجل دين ومؤرخا سوريا شهيرا، ولد قرب آمد Amida في مطلع القرن السادس الميلادي (حوالى عام ٥٠٧م)، وتوفي في خلقدونية أواخر ذات القرن (حوالى ٥٨٦-٥٨٨م)، عين أسقفا للمونوفيزيين بالقسطنطينية خلال عصر جستنيان، وفي عام ٥٤٢م أرسله جستنيان على رأس بعثة تبشيرية لنشر المسيحية بين الوثنيين واليهود في آسيا الصغرى وحقق في هذه المهمة نجاحا منقطع النظير، ولذلك

استدعاه جستنيان للقيام بالتبشير بين الوثنيين في العاصمة الإمبراطورية عام ٥٤٦م، وسرعان ما ذاعت شهرته كمناهض للوثنية في أوساط المونوفيزيين، فرسمه البطريرك يعقوب البرادعي أسقفا لإفسوس ورئيسا لأساقفة آسيا الصغرى عام ٥٥٨م، ونظرا لمعرفته الوثيقة بأحوال المونوفيزيين بالقسطنطينية، فقد صار الرئيس الأعلى للقائلين بالطبيعة الواحدة والمتصرف في شئونهم وممتلكاتهم في القسطنطينية بعد وفاة ثيودوسيوس بطريرك الإسكندرية في عام ٥٦٦م، غير أن حاله تبدل بوفاة الإمبراطور جستنيان، حيث تعرض للسجن والنفي على يدى الإمبراطورين جستين الثانى وتيبريوس لرفضه مذهب الطبيعتين، حتى توفي وهو في سجنه بخلقدونية، ونظرا لجهوده في نشر المسيحية ومحاربة الوثنية وتشييد العديد من الكنائس والأديرة، بالإضافة إلى تحمسه للمذهب المونوفيزى، رفعه أتباعه إلى مرتبة القداسة، وكرسوا له كنيسة وضريحا ضمت رفاته في مدينة إفسوس. لمزيد من التفاصيل، أنظر: يوحنا الأسيوى، تاريخ الكنيسة، ترجمة صلاح عبد العزيز محجوب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ١٩-٢٤.

Griffith ,S.H., "John of Ephesus" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II , Oxford , 1991 , p.1064.

وعن الحج إلى ضريحه بإفسوس، أنظر:

Foss , C., "Pilgrimage in Medieval Asia Minor", *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002) , pp.129-151.

(٢١) سلوقية حاليا هى المدينة التركية Silifke، تقع بالقرب من الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى، على بعد ١٠٠كم جنوب شرق قونية Iconium، و٥٠كم جنوب غرب طرسوس Tarsus، وقد أقيم ضريح القديسة ثيكلا فوق تل جنوب المدينة في القرن الرابع الميلادي، وشهد رحلات حج نشطة للعلاج المقدس وفدت من كافة أنحاء عالم البحر المتوسط خلال الفترة الواقعة ما بين القرنين الرابع والسادس الميلادي. كذلك لاقت عبادة ثيكلا رواجا في مصر إبان ذات الفترة، خاصة في مدينة الإسكندرية، التي قرن مواطنوها عبادتها بعبادة القديس مينا، فأقيم لها بأبو مينا ضريحا ضم أيقونات لها، وكانت العبادتان معا مصدرا لجذب الحجاج من شتى أنحاء عالم البحر المتوسط. لمزيد من التفاصيل عن الحج للعلاج المقدس عند ضريح القديسة ثيكلا بآسيا الصغرى وأيقوناتها في ضريحها بمصر. أنظر:

Davis , *Cult of St. Thecla* , pp.27 , 64-73 , 113-148.

وعن القديسة ثيكلا، أنظر حاشية (٤).

(٢٢) ولد القديس مينا (المعروف بأسم مار مينا ذو العجائب) عام ٢٥٨م في مدينة نقيوس (منوف حاليا) من أسرة مسيحية، انقطع للعبادة في صحراء ليبيا، واستشهد أثناء اضطهاد دقلديانوس للمسيحيين، ونقل جثمانه مع فرقة رومانية قادمة من ليبيا إلى مكان يقع غرب بحيرة مريوط Mareotis، وهو المكان الذي عرف باسمه فيما بعد Aba Mina (المعروف حاليا بأبى مينا)، وفي أوائل القرن الخامس أمر الإمبراطوران أركاديوس وهونوريوس ببناء كنيسة بالمنطقة، شيد بداخلها ضريحا للقديس ضم رفاته. وظلت منطقة أبو مينا مزارا روحيا هاما حتى القرن السابع الميلادي، خاصة بعد أن شاعت معجزات الضريح العلاجية، غير أن المنطقة تعرضت للتدمير نتيجة غارات البدو في أعقاب الفتح الإسلامى. وفي عام ١٩٠٧م كشفت بعثة ألمانية عن بقايا الضريح والكنيسة القديمة، ثم شيد البابا كيرلس السادس عام ١٩٥٩م ديرا بالمنطقة كرسه للقديس مينا (معروف حاليا بدير مار مينا)، وهو دير عامر بالرهبان حتى الأن. لمزيد من التفاصيل، أنظر:

كذلك ؛ كان من بين هذه المظاهر استمرار طقس "حضانة المعبد" incubation، الذي اتخذ شكل الظاهرة في ممارسات العلاج المقدس في الديانة اليونانية القديمة، وتمثل هذا الطقس في لجوء المرضى إلى مجاورة المعبد، خاصة معبد أسكليبيوس، لاعتقادهم في إمكانية تلقى العلاج المقدس من خلال تجلى الإله لهم في رؤى منامية [٢٤]، فكثيرا ما نطالع في فكر كُتاب هجيوجرافيا العصر البيزنطي الباكر تأثرا واضحا بهذا الطقس، منها على سبيل المثال ما يرويه كاتب سيرة القديس ديمتريوس السالونيكى عن شفاء أحد أعضاء مجلس السناتو من مرض ميئوس منه، بعد أن ظهر له القديس في منامه وطلب منه أن يأمر خدامه بحمله من القسطنطينية إلى ضريحه بسالونيك، وعنده استغرق المريض في نوم طويل تخللته

السنكسار القبطى، جـ١(١٥ هاتور)، ص١٣٧ ؛ أولبرى، قديسو مصر، ص٣٠٢-٣٠٤ ؛ بول شينو دورليان، القديسون المصريون، ترجمة ميخائيل مكسى إسكندر، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٤٠٣-٤١٠.

Davis , *Cult of St. Thecla* , pp. 114-17.

وأنظر الوصف الأثرى للضريح ومركز الحج بأكمله:

Grossmann , P., *Abu Mina: A Guide to the Ancient Pilgrimage Center* , Cairo , 1986.

(٢٣) ولد القديس كيروس (المعروف باسم أباكير) في الاسكندرية، تعلم بمدرسة الطب فيها، وتخرج منها طبيبا، ثم لجأ إلى الصحراء هربا من مطاردة والى مصر في عهد دقلديانوس، وحقق من خلال رهبانيته شهرة بلغت سوريا وفلسطين، فجاءه صديقه ورفيق عمره الأبدى القديس يوحنا، الذي ولد في الرها، وعمل ضابطا بالجيش الرومانى، ثم رحل إلى الصحراء رغبة في الانخراط في حياة الرهبنة، إلا أن السلطات الرومانية تمكنت من القبض عليهما وقطعت رأسهما، ودفنا سرا في كنيسة مارمرقص بالإسكندرية، ثم تم نقلهما في القرن الرابع إلى كنيسة أبى قير، وشهد ضريحهما حركة حج نشطة للعلاج المقدس، خاصة بعد أن نسبت إليه الكثير من المعجزات الشفائية، وبعد الفتح العربى نقلت رفاتهما إلى روما، وقد سميت المنطقة التي وجد فيها ضريح القديسين بـ "أباكيروس Abacyrus" ومنها اشتق اسمها الحالى "أبو قير" . لمزيد من التفاصيل، أنظر : السنكسار القبطى (١٤ بؤونة)، ج٢، ص٢٤٧ ؛ أوليرى، قديسو مصر، ص١٢٦-١٢٧ ؛ دورليان، القديسون المصريون، ٧١-٧٤.

Montserrat , D., "Pilgrimage to the Shrine of SS Cyrus and John at Menouthis in Late Antiquity" , *Pilgrimage and Holy Space in Lat Antique Egypt* , ed. D. Frankfurter , Leiden , 1998 , pp.257-79.

ومن الملاحظ أن هناك روايتين لسيرة القديسين، إحداهما ضمنت في سنكسار الكنيسة المصرية، والأخرى كتبها صفرونيوس بطريرك بيت المقدس الذي عاش في النصف الأول من القرن السابع (٦٣٣/٦٣٤-٦٣٨م)، وقد اعتمد الباحث على الروايتين.

(٢٤) عن طقس حضانة المعبد في عبادة أسكليبيوس، أنظر: فايز يوسف محمد، "حضانة المعبد في معابد بلاد الإغريق ومصر"، مجلة مركز الدراسات البردية والنقوش بجامعة عين شمس، العدد التاسع، ١٩٩٣، ص١٢٧-١٣٩.

رؤية للقديس [٢٥]، كما تضمنت معجزات القديسين يوحنا وكيروس قصة علاج قس بكنيسة الاسكندرية، أصيبت عيناه بمياة زرقاء، من خلال رؤياه للقديسين عند ضريحهما [٢٦]، وفي معجزات القديس أرتيميوس، كان طقس "حضانة المعبد" هو الطريق الرئيسى لتلقى العلاج المقدس، إذ كان على المريض النوم عند ضريحه في كنيسة القديس يوحنا برودروموس، أملا في زيارة منامية من القديس يشفي من خلالها. ويشير كاتب المعجزات إلى أن بعض المرضى تلقوا العلاج بعد وقت قصير نسبيا، عادة في ذات ليلة حضور المريض أو الليلة التالية لها، وقد تطول فترة الحضانة لأيام [٢٧]، أو قد تمتد لشهور أو سنين[٢٨]. وربما بلغ تأثر كاتب المعجزات بطقس "حضانة المعبد" الإغريقى إلى حد إشراكه القديس يوحنا برودروموس St. John Prodromos والقديسة فبرونيا St. Febronia كمساعدين لأرتيميوس في علاج مرضاه [٢٩]، محاكيا بذلك المعتقدات اليونانية القديمة التي جعلت من بنات أسكليبيوس الثلاث، ياسو Iaso وهيجيا Hygieia وباناكيا Panacea، مساعدات له في مهمة العلاج المقدس [٣٠].

---

(٢٥) *PL* , 129 , cols. 717-18.

(٢٦) دورليان، القديسون المصريون، ص٧٣.

(٢٧) *The Miracles of St. Artemios : A Collection of Miracle Stories by an Anonymous Author of Seventh-Century Byzantium* , trans. V.S. Crisafulli , Leiden – New York – Köln , 1997 , mir. 3 , pp. 81-3. (hereafter : Crisafulli , *St. Artemios*)

في المعجزة رقم (٣) ظل مريض من أماستريس Amastris ثلاثة أيام في الكنيسة حتى زاره القديس وعالجه من حبة بوعاء الخصيتين scrotal boil بعد دهنها بمرهم أطلق عليه الـ *kêrôtê*.

(٢٨) Crisafulli , *St. Artemios* , mir. 35 , pp.185-9.

في المعجزة رقم (٣٥) أمضى تاجر من خيوس يدعى يوبوروس Euporos ثلاثة أشهر، ورجل من رودس يدعى جورجيوس سنتين في انتظار رؤية القديس. ويشير قونسطنطيلوس إلى أن طقس "حضانة المعبد" يمارس على نطاق واسع حتى الأن في المناطق التي تعيش بها الديانة البيزنطية في اليونان والبلقان وروسيا وغيرها. Constantelos , *Byzantine Religiosity* , p.143.

(٢٩) Crisafulli , *St. Artemios* , mir. 38.

يشير كاتب المعجزات الى أن القديس أرتيميوس اعتمد في حالتين على مساعدة القديسة فبرونيا وحدها، الأولى عندما ظهر في رؤيا لأم وابنتها المريضة بالفتاق، وأرشدهما إلى الذهاب لضريح فبرونيا القابع يمين مذبح نفس الكنيسة، كنيسة يوحنا برودروموس، فظهرت القديسة للفتاة في رؤيا وعالجتها، وفي الحالة الثانية أرسل أرتيميوس فبرونيا لعلاج امرأة من خلال رؤيا. وقد علق كاتب المعجزات على السبب الذي دفع أرتيميوس إلى اللجوء لمساعدة فبرونيا بقوله :" من الملاحظ أن الشهيدة فبرونيا كانت مساعدة للقديس في هذه الرؤيا، ربما بسبب شعور الحياء الذي ينتاب المريضات الإناث"، و"لأن هناك أوقات كان شهيد المسيح يعتمد على القديسة فيرونيا لمساعدته في صنع المعجزات عندما تكون الحالات نسوية".

Ibid , mir. 24 , 45.

وإذا كانت مهمة الاستشفاء المرتبطة بالقديس البيزنطي قد تأثرت في بعض مظاهرها بأحد أهم مكونات الثقافة الشعبية البيزنطية، وهو التراث اليونانى القديم، فلا شك في أنها ارتبطت بشكل أوثق بأهم مكونات هذه الثقافة على الإطلاق، ممثلا في الديانة المسيحية. والمطالع لهجيوجرافيا العصر البيزنطي الباكر يمكنه القول بأن المسيحية كان لها الدور الأساسى والفاعل في صياغة مفاهيم ومضامين هذه الوظيفة، فالقديس عند ممارسته للعلاج المقدس كان في المقام الأول يقوم بدور الوسيط بين المسيح وأتباعه من المرضى. والباحث في أنماط معجزات القديسين البيزنطيين عامة، والشفائية خاصة، يجد تشابها أو ربما تماثلا مع معجزات المسيح الواردة في العهد الجديد، وهى في معظمها معجزات شفائية [٣١]، ويأتى

ويبدو أن الكاتب يعبر هنا عن مفهوم مجتمع بيزنطة الذكورى المتحفظ تجاه مسألة اختلاط الذكر بالأنثى، وهو المفهوم الذي حصر المرأة داخل أدوار مجتمعية معينة، فهى إما أم داخل إطار الأسرة أو راهبة في الدير، وحتى إذا دعت الضرورة لخروجها إلى العمل فليقتصر ذلك على الأعمال ذات الطبيعة النسوية كالخاطبات والقابلات والمربيات والممرضات في عنابر النساء بالمستشفيات . لمزيد من التفاصيل أنظر : عبد العزيز رمضان، المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص ٧٩-٨١، ١٢٨-١٢٩.

(٣٠) فايز يوسف محمد، حضانة المعبد، ص ١٣٠.

(٣١) ورد في العهد الجديد أن المسيح تنقل في منطقة الجليل " يشفي كل مرض وعلة في الشعب، فذاع صيته في سورية كلها، فحمل إليه الناس مرضاهم المعانين من الأمراض والأوجاع على اختلافها، والمسكونين بالشياطين، والمصروعين، والمشلولين، فشفاهم جميعا" (متى، ٤ :٢٣-٢٥)، وفي الجليل أيضا "توافدت إليه جموع كثيرة ومعهم عرج ومشلولون وعمى وخرس وغيرهم كثيرون، وطرحوهم عند قدميه فشفاهم، فدهشت الجموع إذ رأوا الخرس ينطقون، والمشلولين أصحاء، والعرج يمشون، والعمى يبصرون" (متى ١٥ :٢٩-٣١)، وفي أرض جنيسارت "عرفه الناس، فطافوا في أنحاء تلك البلاد المجاورة، وأخذوا يحملون من كانوا مرضى على فرش إلى كل مكان يسمعون انه فيه، وأينما دخل، إلى القرى أو المدن أو المزارع، وضعوا المرضى في الساحات العامة متوسلين إليه أن يلمسوا ولو طرف ردائه، فكان كل من يلمسه يشفي" (مرقص ٦ :٥٣-٥٦)، وعن شفائه للبرص (متى ٨ /١-٤ ؛ مرقص ١ / ٤٠-٤٥ ؛ لوقا ٥ /١٢-١٦، ١٧ /١١-١٩). وشفائه للشلل (متى ٨ /٥- ١٣؛ ٩ /١-٨ ؛ مرقص ٢ /١٢-، ٣ /١-٥ ؛ لوقا ٥ /١٧-٢٦، ٦ /١-١١ ؛ يوحنا ٥ :١-١٦). وشفائه من تملك الأرواح والشياطين (متى ٨ /٢٨-٣٤، ١٧ :١٤-١٨؛ مرقص ١ /٢١-٢٨، ١ /٣٢-٣٤، ٥ /١-٢٠، ٩ / ١٤-٢٧ ؛ لوقا ٤ /٣١-٣٧، ٨ /٢٦-٣٩، ٩ /٣٧-٤٣، ١٣ /١٠-١٧). وشفائه لنزيف الدم (متى ٩ /٢٠-٢٦ ؛ مرقص ٥ /٢٥-٤٣، ٨ / ٤٣-٤٨). وشفائه للعمى (متى ٩ /٢٧-٣١، ٢٠ /٢٩-٣٤ ؛ مرقص ٨ /٢٢-٢٦، ١٠ /٤٦-٥٢ ؛ يوحنا ٩ /١-٤١). وشفائه للخرس والصمم (متى ٩ / ٣٢-٣٤ ؛ مرقص ٧ /٣١-٣٧). وشفائه للعمى (مرقص ١ /٢٩-٣١؛ لوقا ٤ /٣٨-٣٩ ؛ يوحنا ٤ /٤٦-٥٣). وشفائه لمرض الاستسقاء (لوقا ١٤ /١-٦).

هذا التشابه كنتيجة طبيعية لكون العهد الجديد اعتبر رسل المسيح وقديسيه بمثابة مفوضين من قبله ووسطاء له في الإتيان بالمعجزات[٣٢]، فقد ورد في الإنجيل كما دونه متى أن المسيح "دعا إليه تلاميذه الإثنى عشر، وأعطاهم سلطانا على الأرواح النجسة ليطردوها ويشفوا كل مرض وعلة". [٣٣] وفي رسالة بولس الأولى إلى مؤمنى كورنثوس راح يوضح إمكانية انتقال قدرات المسيح الإعجازية، أو ما أطلق عليها "المواهب الروحية"، إلى من اصطفاهم، فيهب لمن يشاء منهم كلام الحكمة، وأخر كلام المعرفة، وأخر موهبة شفاء الأمراض، وأخر عمل المعجزات ... [٣٤]، ثم راح بولس يرتب مكانة هؤلاء في كنيسة الله بقوله : "قد رتب الله في الكنيسة أشخاصا مخصوصين : أولا الرسل، ثانيا الأنبياء، ثالثا المعلمين، وبعد ذلك أصحاب المواهب المعجزية أو مواهب الشفاء أوإعانة الآخرين أو تدبير الشئون أو التكلم باللغات المختلفة" [٣٥].

ووفقا لهذه النصوص الإنجيلية تشكل مفهوم البيزنطيين عن معجزات القديسين عامة، والعلاجية منها بصفة خاصة، بوصفها موهبة ربانية خاصة يقوم القديس من خلالها بدور الوسيط بين المسيح وبينهم، وهو الأمر الذي عكسه كتاب هجيوجرافيا العصر الباكر بوضوح، فقد راح كاتب معجزات القديس أرتيميوس يتساءل: "من ذا الذي لا يؤمن بقوى المسيح، الذي من خلاله امتلك القديس قدرته؟ لأننا حديثا سمعنا أن هذا الشهيد العظيم كان يحمل مرتبة الدوق doux، ولم يكن طبيبا أو ابنا لطبيب، بل ربما إذا رأى مبضع الطبيب ذات مرة، لأرتعد كشخص يلفظ أنفاسه الأخيرة، لكنه هجر الثروة وروابط القرابة الزائلة، ووهب حياته للمسيح، فتلقى منه هبة الشفاء، وبدلا من أن يظل دوقا لمنطقة من العالم المأهول، غدا شافيا ومعالجا للعالم، وما لم يتأت له وهو في سجن الجسد، ناله بعد أن غادره" [٣٦]. وهو مفهوم عبر عنه أيضا كاتب سيرة القديس ثيودور السيكيونى St. Theodore of

---

(٣٢) ورد في أعمال الرسل أنه جرت على أيديهم "معجزات وعجائب كثيرة بين الشعب ...، وكان الناس يحملون المرضى على فرشهم وأسرتهم إلى الشوارع، لعل ظل بطرس عند مروره يقع على أحد منهم فينال الشفاء، بل كانت الجموع من المدن والقرى المجاورة يأتون إلى أورشليم حاملين المرضى والمعذبين بالأرواح النجسة، فكانوا جميعا يبرأون" (أعمال الرسل ٥ /١٢-١٦) .

(٣٣) متى ١٠ / ١.

(٣٤) الرسالة الأولى إلى مؤمنى كورنثوس ١٢ /٤-١١.

(٣٥) الرسالة الأولى إلى مؤمنى كورنثوس ١٢/٢٨.

(٣٦) Crisafulli , *St. Artemios* , mir. 24 , pp.143-4.

(٣٧) The Life of St. Theodore of Sykeon , in: *Three Byzantine Saints : Contemporary Biographies of St. Daniel the Stylite , St. Theodore of Sykeon and St. John the*

Sykeon، مستشهدا بما ورد في إنجيل متى، بقوله : "إن الرب الرحيم الذي دعا إليه تلاميذه الإثنى عشر، وأعطاهم سلطانا على الأرواح النجسة ليطردوها ويشفوا كل مـرض وعلـة، أعطاه -يقصد القديس- السلطة على طرد الأرواح الشريرة من البشر وعلاج المرضى" [٣٧].

ووفقا لاختلاف مهمة القديس الذي يهتم بعلاج السبب الروحي للمرض، عن مهمـة الأطباء التي تعنى في المقام الأول بمسببات طبيعية ومناهج علمية في التشخيص والعـلاج، صيغ موقف فئة من كتاب هجيوجرافيا العصر الباكر من الأطباء والطب التقليدي [٣٨]، أو ربما إذا جاز التعبير "الطب العلمي" لأبقراط Hippocrates وجالينوس Galen بوصـفه الطـب الممارس من قبل محترفيه في بيزنطة العصر الباكر، فالمطالع لكتابات تلـك الفئـة يلاحـظ هجوما عنيفا على مهنة الطب ومحترفيها. وإذا كان الاشتقاق المباشر من الطرق والمنـاهج الاسكليبينية قد اعترف به، بصورة ضمنية على الأقل، ففي المقابل شجبت واستنكرت بعنـف أية استعارة من طب ايقراط وجالينوس، ومن ناحية أخرى حرص كتاب هذه الفئة إلى عقـد مقارنات بين مهمة العلاج المقدس والطب التقليدي، أو بالأحرى بـين القـديس والطبيـب، استهدفت إظهار مهارة الأول وإخفاق الأخير.

Almsgiver , trans. E. Dawes , introductions & Notes by N.H. Baynes , London, 1948, ch.17.

كذلك وصف كاتب السيرة القديس ثيودور بأنه "تلميذ المسيح، الطبيب الحقيقي" . Ibid , ch.146.

وهذا الكتاب نشره بول هالسال بالكامل، مسجلا أرقام الفصول وليس الصفحات، ضمن Medieval Sourcebook على موقع : www.fordham.edu. وأنظر الترجمة الفرنسية للسيرة:

Vie de Théodore de Sykeôn , trad. A.Festugière , Bruxelles , 1970 , ch.17, p.18 ; ch.146 , pp. 119-120.

(٣٨) تضم هذه الفئة عددا من كتاب سير ومعجزات قديسى العصر البيزنطي الباكر المتخصصين في العلاج المقدس، يأتى في مقدمتهم الكاتب المجهول لمعجزات القديسين كوزماس وداميان الذي عاش في النصف الأول من القرن السادس الميلادي، والبطريرك صفرونيوس كاتب معجزات القديسين كيروس ويوحنا في النصف الأول من القرن السابع، والكاتب المجهول لمعجزات القديس أرتيميوس في النصف الثانى من القرن السابع. ومن الجدير بالملاحظة أن الغالبية العظمى من معجزات أولئك القديسين انحصرت في مهمة العلاج المقدس، وأن ثلاثة منهم، وهم القديسين كوزماس وداميان وكيروس، كانوا أطباءً، درسوا الطب في مدرسة الإسكندرية ومارسوه أثناء حياتهم. ومن الملاحظ أيضا أن كتاب هذه المعجزات عاشوا وكتبوا خلال القرنين السادس والسابع الميلادي، مما قد يفسر بأن مواقف هذه الفئة كانت وليدة ظروف واتجاهات خاصة بهذين القرنين، إلا أن هناك كتاب سير ومعجزات من القرن الخامس عبروا عن ذات المواقف، وإن كان بصورة أقل حدة وأكثر إقتضابا، ككاتبى معجزات القديستين ماترونا البرجية وإليزابيث. ومن هنا كان اتجاه الباحث إلى دراسة هذه المواقف عبر فترة العصر البيزنطي الباكر، مع الوضع في الإعتبار أن الثلاث معجزات الأولى تمثل المصدر الأساسى لآراء هذه الفئة.

ولا شك في أن موقف أولئك الكتاب من الطب التقليدي يعكس النفور والتناقض بين منهجى العقلانية واللاعقلانية، وهو في نفس الوقت دعاية ربما قصد منها التأكيد على تفـوق مناهج العلاج المقدس في مواجهة تلك الخاصة بالطب التقليدي، وهو الأمر الذي عبر عنـه بوضوح بطريرك بيت المقدس صفرونيوس في النصف الأول من القرن السابع، عنـدما راح يروى قصة جيزيوس Gesios الذي كان "سوفسطائيا حكيما، ليس في تدريس الخطابة، ولكن كممارس سابق لمهنة الطب ومعلم شهير لمناهجها وطرقها لطلابه"[٣٩]، ولأنه كان وثنيا اضطر إلى اعتناق المسيحية قسرا بعد صدور مرسوم إمبراطورى يأمر بالتعميد الإجبارى للوثنيين، لم يدع فرصة إلا وسخر من المسيحيين لـ "عبادتهم المضحكة والـسخيفة للمـسيح"، وراح يسخر من القديسين المعالجين يوحنا وكيروس زاعما بأن علاجهما لا يتم بصورة إعجازية أو بقوى خارقة للطبيعة، بل هو نتاج لعلاجات ووصفات طبية ضمنها أبقراط وجـالينوس فـي كتاباتهم، وسر عان ما أصيب جيزيوس بآلام في كتفيه ورقبته أعجزته عن الحركة، وبعـد أن يأس من الشفاء باستخدام تقنيات مهنة الطب التي كان هو نفسه أستاذا فيها، لجأ إلـى كنيـسة القديسين يوحنا وكيروس، وراح يصلى ويتضرع لهما أملا في أن يمنحاه العلاج من سقمه.

ومن الملاحظ هنا ؛ أن البطريرك صفرونيوس، كأحد كتاب الفئة المعاديـة للطـب التقليدي، قرن بصورة ضمنية بين الوثنية والطب التقليدي من ناحية[٤٠]، والمـسيحية والطـب

---

(٣٩) Festugière , *saints Cyr et Jean* , mir. 30.

أشارت بعض مصادر العصر البيزنطي الباكر إلى شخصية جيزيوس، أستاذ الطب في مدرسته بالإسكندرية إبان القرن الخامس الميلادي، فكتب عنه أينياس الغزاوى Aeneas of Gaza أن " فصاحته البلاغية وقدرته البيانية أزالت كل صعوبات شروح الطب المعقدة"، وكتب عنه بروكوبيوس الغزاوىProcopius of Gaza أن " تشخيصه كان كالضوء الساطع لابد وأن يؤدى إلى شفاء مؤكد"، كما أشار إليه البطريرك فوشيوس في مكتبته وذكر أنه كان مسيحيا في الظاهر، لكنه ظل وثنيا بعاطفته، وظهر ذلك في مساندته للفيلسوف الوثنى هيرايسكوس Heraiscus عندما حاول الدفاع عن تمثال إيمحوتب من إعتداء المسيحيين. Nutton, *Galen to Alexander*, p. 6.) . أما أينياس الغزاوى فكان مدرسا للخطابة في الإسكندرية خلال النصف الثانى من القرن الخامس الميلادي، درس الأفلاطونية المحدثة على يد هيروكليس Hierokles، ثم ارتحل إلى القسطنطينية وقضى بها فترة عاد بعدها إلى الإسكندرية، ووضع عدة مؤلفات أشهرها على الإطلاق مؤلفه المعروف بـ Theophrastus، وهو عبارة عن مناظرة دافع فيها الفيلسوف الأرسطى ثيوفراستوس عن آرائه بشأن خلود الروح.

Baldwin, B., 'Aineias of Gaza" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I ,Oxford , 1991 , p. 41.

(٤٠) يبدو أن ربط البطريرك صفرونيوس بين وثنية جيزيوس والطب التقليدي جاء انعكاسا لاعتقاد عام ساد بيزنطة في العصر الباكر بأن مهنة الطب كانت معقلا للوثنية والهرطقة، وكان لهذا الاعتقاد ما يبرره على

الصعيد الواقعى، فكما أشارت آنا موفات في دراستها عن "مدرسى العلوم في العصر البيزنطي الباكر"، أن أكثر أطباء القرنين الرابع والخامس الميلاديين ظلوا على الوثنية، أمثال أوريباسيوس Oribasius وأجابيوس السكندرى Agapius of Alexandria وأسكليبيودوتوس الأفروديسياسي Asclepiodotus of Aphrodisias و يعقوب القيليقى الملقب بالبارد Jacobus Psychrestus وأبيه. وفي هذا الصدد يرى بارى بلدوين أن موقف كتاب الهجيوجرافيا المعادى لم يكن موجها ضد الطب التقليدي والأطباء بقدر كونه موجها ضد اقترانهم بالوثنية.

A. Moffatt , "Science Teachers in Early Byzantine Empire Some Statistics" , *Byzantinoslavica* 24(1973) , 15-18; Baldwin , B., "Beyond the House Call : Doctors in Early Byzantine History and Politics" , *Dumbarton Oaks Papers* 38(1984) , pp.15-19 ; Nutton , *Galen to Alexander*, p. 6.

وفي هذا السياق يروى سوزومين، مؤرخ الكنيسة في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي، قصة بروبيانوس Probianus أحد أطباء القصر في عهد قسطنطين، تتشابه إلى حد كبير مع قصة جيزيوس، حيث كان وثنيا مشككا في القوى المقدسة على العلاج، ثم أصيب بمرض خطير في قدميه عجز الطب التقليدي عن التعاطى معه، فلجأ إلى كنيسة القديس ميخائيل، وهناك شفي عن طريق رؤيا منامية، فاعتنق المسيحية وصار شديد الإيمان بقدرة العلاج المقدس.

Sozomen , *The Ecclesiastical History of Sozomen : Comprising a History of the Church from A.D.323 to A.D.425* , trans. Ch.D.Hartranft , Edinburgh , n.d. ,book.ii , ch.iii.

وقد اعتمد الباحث على النص الكامل لهذا المصدر المنشور على موقع :

http://www.vitaphone.org/history/sozomen.html

كذلك؛ هناك رواية ليوحنا الأفسوسى هاجم فيها جماعة وثنية من النحويين والمحامين والأطباء تعرضت للاضطهاد على يد جوستنيان.

John of Ephesus , *Ecclesiastical History* , *Revue de l'Orient Chrétien* , 2(1897) , pp. 481 f.

ويجد الباحث صعوبة فى مدى صحة أو إمكانية ربط رواية يوحنا الأفسوسى برواية أخرى مشابهة لبروكوبيوس، ففي معرض نقده لسياسة جوستنيان، أشار إلى أنه جعل الأطباء ومعلمى أبناء النبلاء يفتقرون حتى للضروريات الأساسية في الحياة، وذلك لأنه انتزع منهم كلية الحصص المجانية من المؤن والأرزاق التي داوم أباطرة سابقون على صرفها لأفراد هاتين المهنتين، ويعلق على ذلك بقوله "ومنذ ذلك الحين لم يعد الأطباء والمعلمون يساوون شيئا". ومن الملاحظ هنا أن بروكوبيوس لم يذكر شيئا بخصوص ارتباط هذا الأمر بوثنية المعلمين والأطباء، وإنما جاء نقده في سياق حديثه عن كيفية نجاح جوستنيان في تدمير كل أصحاب المقامات الرفيعة والوظائف العليا في بيزنطة والمدن الأخرى، والأهم أنه بدأ حديثه عن هذه الطبقة بالمحامين ثم الأطباء فالمعلمين

Procopius , *The Anecdota or Secret History* , trans. H.B.Dewing , Loeb Classical Library , Cambridge Mass. & London ,1993 , p. 303.

بروكوبيوس، التاريخ السرى، ترجمة على زيتون، دمشق، ٢٠٠٣م، ص١٦٨-١٦٩. وعن اقتران بعض أطباء القرن الرابع بهرطقات وثنية، أنظر: Nutton , *Galen to Alexander*,pp. 6-7.

المقدس من ناحية أخرى، أو بمعنى أخر أراد القول بأن جيزيوس لم ينكـــر قـــدرة العـــلاج الإعجازية للقديسين إلا لكونه وثنيا، وأراد في الوقت نفسه أن يبلغ رسالة من خلال ذلك إلـــى قراءه بأنه على المسيحي الحقيقى أن يؤمن بهذه القدرة وإلا تعرض للعقاب الإلهى، ومرض جيزيوس هنا لم يكن إلا نوع من هذا العقاب، أراد صفرونيوس من خلاله نفي تأثر وظيفـــة العلاج المقدس للقديسين يوحنا وكيروس بأى من معطيات الطب التقليدي، والتأكيد علـــى أن علاج القديسين هو نوع آخر مختلف يرتبط بقدرات اعجازية وقوى خارقة للطبيعة. ومن هنا جاء اتجاه جيزيوس "بعد أن يأس من الشفاء بتقنيات مهنة الطب التي كان هو نفـــسه أســـتاذا فيها"، إلى هجر الطب التقليدي الذي أثبت فشلا في علاج مرضه، واللجوء إلى العلاج المقدس الذي رفضه منذ البداية، ربما بوصفه الأن الملاذ الأخير. وبطبيعة الحال كان صـــفرونيوس حريصا، أو بالأحرى متعمدا، في سرده لبقية أحداث القصة إســـباغ مزيـــد مـــن الـــسخرية والاستهزاء بجيزيوس كنوع من التشفي والعقاب، أو ربما لجعله مثل وعبرة لمن قد تسول له نفسه بإنكار القدرة الشفائية للقديسين[٤١]، وكان أكثر حرصا على أن يختـــتم قـــصته بتـــوبيخ، صبغته نبرة سخرية واضحة، من القديسين لجيزيوس، بعد أن طوقا عنقه بشفائه من المرض، سائلين إياه : "أخبرنا أين ضمن أبقراط دواءً لمرضك؟! وأيـــن وصـــف جـــالينوس علاجـــا بشأنه؟!"[٤٢].

وربما كان اقتران مهنة الطب بوجه عام بالوثنية، أحد الأسباب التي دفعت هذه الفئة من كتاب هجيوجرافيا العصر الياكر إلى اتخاذ موقف عدائى من الطب والأطباء، أو ربما مثل أحد الأسلحة التي استخدموها في دعايتهم ضد الطب التقليدي، خاصة وأن تضميناته توحى بأن الصراع بين القديسين والأطباء، أو العلاج المقدس والطب التقليدي، هو في الأساس صراع بين المسيحية والوثنية، بين الروح والمادة .

Baldwin , *Doctors* , p.17.

(٤١) في بقية أحداث القصة، عندما يلجأ جيزيوس إلى كنيسة القديسين يوحنا وكيروس، ممارسا لطقس "حضانة المعبد"، يزوره القديسان في المنام ويصفان له علاجا به الكثير من السخرية والاستهزاء بشخص جيزيوس، فيقولان له :" لقد ادعيت الحكمة وأثبت بدلا منها حماقة، فلتحضر سرج حمار وترتديه فوق كتفيك، وعند منتصف النهار سر حول الكنيسة صائحا (أنا أحمق غبى)، عندئذ سترد إليك عافيتك في الحال"، واعتقد جيزيوس أن الأمر مجرد تخيل فلم يعر له اهتماما، ولذلك ظهر القديسان له ثانية في منامه، ليضيفا أمرا جديدا إلى السابق بأن يرتدى إلى جانب سرج الحمار حزاما عريضا حول رقبته، ولم يهتم جيزيوس، فظهر له القديسان في منامه للمرة الثالثة، وأمراه بأن يضيف لما سبق لجام حصان على فمه، وأن يجره أحد عبيده حول الكنيسة وهو يصيح بعبارة (أنا أحمق غبى)، وفي هذه المرة خشى جيزيوس من عدم الإذعان، فنفذ الأمر وشفي.

(٤٢) Festugière , *saints Cyr et Jean* ,mir.30.

والصيغة الأخيرة التي تشير إلى عجز الطب التقليدي في مواجهة العلاج المقـدس، كررها صفرونيوس بعبارة أشد قسوة أوردها على لسان إلياس Elias الذي تلقى علاجا مقدسا من مرض الجذام، فراح يلعن ويسب الأطباء الذين فشلوا في علاجـه قـائلا :" إن أبقـراط وجالينوس إخوة لقطاء كذابون، مع أولئك الذين يتباهون بكلامهم"[٤٣]. وعلى ذات النسق سـار كاتب معجزات القديس أرتيميوس في النصف الثانى من القرن السابع الميلادي، عندما تعمـد أن يختتم رواياته عن معجزات القديس العلاجية بذات العبارات الهجومية ضد الأطباء، ففـي إحدى المعجزات راح يتسأل : "من ذا الذي لا يؤمن بقوى المسيح، الذي من خلالـه امتلـك القديس قدرته ؟"، وأعقب تساؤله بمقارنة بين القديس أرتيميوس الذي لم يكن طبيبـا أو ابـن طبيب، بل لربما ارتعد إذا رأى مشرط الطبيب، لكنه مع ذلك تلقى هبة الشفاء من المـسيح، فغدا شافيا ومعالجا للعالم، وبين محترفي الطب التقليدي الذين تساءل عنهم قائلا :" أين شهرة أبقراط وجالينوس الذائعة وأدعياء العلاج الآخرين الذين لا يحصى عددهم؟ أولئك الـذين لا يزالون يتبعون أساليبهم العقيمة"[٤٤]. وفي معجزة تالية راح يعقد ذات المقارنة بقولـه :"هـذه الأشياء حققها أرتيميوس الطبيب المقدس، فماذا فعلت أنت أيها الجراح المتبجح؟ إنك لا زلت تستخدم ما استخدمه أدعياء العلاج القدماء، إن عقدك أبطـل ومـشرطك أتلفـه الـصدأ، إن مراهمك وأدويتك وأدواتك الجراحية عديمة الجدوى."[٤٥]

هكذا ؛ اتجه عدد من كتاب الهجيوجرافيا الباكرين إلى عقد مقارنة بين الطب المقدس ونظيره التقليدي، أرادوا من خلالها إبراز تفوق الأول وعجز الأخير، وهى بلا شك مقارنـة أرادوا من خلالها الدعاية والترويج للقديسين المعالجين بوصفهم الأطباء الحقيقيين في مواجهة من أطلقوا عليهم "أدعياء العلاج"، وداخل هذه المقارنة عكسوا صورة سلبية لمحترفي مهنـة الطب التقليدي، واقترحوا ما يمكن أن يطلق عليه عقابا لابد وأن يلحق بأولئك الذين يجـدون في الطب التقليدي بديلا عن الطب المقدس، عقاب لا يقتصر على تفاقم المرض وتدهور حالة المريض فقط، بل يستتبع أيضا خسارة مالية تتمثل في إنفاق المريض كل مـا يملـك نظيـر العلاج على أيدى الأطباء دون أن يتحقق في المقابل تحسنا لحالته، ولـذلك حـرص هـؤلاء الكتاب على أن يضمنوا داخل الصورة السلبية التي أرادوا عكـسها عـن الأطبـاء تهمتـين محددتين، الأولى هى فشلهم الدائم وعجز مناهجهم وطرقهم العلاجية، والثانية إلصاق صفات الطمع والجشع والابتزاز المالى بهم.

---

(٤٣) Festugière , *saints Cyr et Jean* ,mir.13.

(٤٤) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.24 , pp. 143-144.

(٤٥) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.25 , pp. 145-147.

وتبرز هذه الصورة السلبية عن الأطباء بوضوح في معجزات القديس أرتيميوس، إلى حد يستحق التوقف عنده قليلا لمناقشة وتحليل رؤية كاتبها، فهو يوحى لقارئه بأنه لم يكن يهدف من تدوينه للمعجزات تمجيد قديسها وقدراته الإعجازية على العلاج، بقدر رغبته في التأكيد على فشل الأطباء وقصور مناهجهم وأساليبهم، من خلال تقديمه أمثلة تطبيقية على ذلك. ويبدو أن حرصه على أن تنال رواياته تصديقا وتأثيرا لدى أفراد المجتمع، جعله يتميز عن أكثر كتاب هجيوجرافيا العصر الباكر في تضمينه أغلب رواياته معلومات وافية عن هوية المرضى، كالأسم والسن والوظيفة والموطن الأصلى ومحل الإقامة الحالى[٤٦]، وأغلب هؤلاء المرضى ترددوا قبل اللجوء إلى ضريح القديس على أطباء كثيرين دون أن يشفوا أو يتحقق لحالاتهم المرضية أدنى تحسن [٤٧]، ومن بينهم الكارتولاريوس جورج[٤٨] الذي عانى من مرض مؤلم بسبب قرح ظهرت على عضوه الذكرى، ورغم تردده على العديد من الأطباء إلا أن حالته زادت سوءً، فكلما بدوا في طريقهم إلى الشفاء تزايد عدد القرح، ولذلك قرر بعض الأطباء إجراء جراحة له، وهنا كان الكاتب حريصا على إظهار قصورهم وارتباكهم بقولهم: "إذا استأصلنا القرح بالمشرط، سيتقاطر الدم في موضع الجرح وستنتج قرح أخرى، وحتى إذا عملنا على إزالتها دون جراحة فستعود إلى الظهور ثانية، وهكذا سيظل المريض يعانى من قرحه لا محالة". وعندما ظهر لجورج عجز أطبائه طردهم واتجه إلى ضريح القديس، فظهر له في المنام وسأله :"ما الأمر"، فأجابه جورج :"مريض عجز الأطباء عن علاجه"، وعندئذ كشف القديس عن موضع المرض قائلا :"إنها سبع قرح، ما هذا بالمرض الجدير بأن يحتار الأطباء حوله"[٤٩].

وإذا كان كاتب المعجزات قد أراد إظهار عجز الأطباء، فإن حديثه لم يخل من نبرة سخرية وتهكم، ومبالغة في وصف قصور حرفتهم في مواجهة قدرة ارتيميوس الإعجازية، خاصة عندما ذكر على لسان القديس قوله :"ما هذا بالمرض الجدير بأن يحتار الأطباء حوله". وفي حالات تالية اتجه الكاتب إلى إبراز هذا القصور الطبى من خلال تدخل ارتيميوس ذاته

---

(٤٦) Nesbitt , *Introduction* , pp.19-21.

(٤٧) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.3 , pp. 81-83 ; mir. 4 , pp. 83-4 ; mir.20 , pp. 123-5 ; mir.21 , pp.125-130 ; mir.22 , pp.131-7 ; mir.23. , pp.137-141.

(٤٨) الكارتولاريوس *chartoularios* : موظف يشرف على حفظ الأرشيفات وتوثيق الوثائق الرسمية المتعلقة بالخزانة الإمبراطورية، لمزيد من التفاصيل، أنظر:

Kazhdan , A., "Chartoularios" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I ,Oxford , 1991, p.416.

(٤٩) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.20 , pp. 123-125.

كمرشد للأطباء نحو العلاج الصحيح، أو لإصلاح أخطاء طبية قد تودي بحياة المريض، منها حالة رجل مسن مصاب بالفتاق أمضى عشرة أشهر في المستشفى تلقى خلالها "أفضل ما لدى الأطباء من قدرة على العلاج"، لكن حالته لم تتحسن بل ازداد المرض سوءً، فلجأ إلى كبير الأطباء، الذي أجابه : " إنها الشيخوخة، ستظل بمرضك حتى الوفاة، فلا علاج له، وكل ما نستطيعه هو أن نخفف الألم"، وعندما يأس الرجل من قصور الطب عن علاج مرضه راح يتضرع للقديس أرتيميوس بأن ينعم عليه بإحدى معجزاته العلاجية، فظهر القديس لأحد الأطباء المساعدين بالمشفي في منامه وأخبره بما ينبغي عليه عمله "طبيا"، فاستيقظ وأجرى جراحة للمريض وفقا لتوجيهات القديس. وهنا حرص الكاتب على إظهار ذات نبرة السخرية والتهكم، والمبالغة في وصف قصور حرفة الطب في مواجهة قدرة ارتيميوس الإعجازية، عندما يستطرد بقوله:"وعندما كشف كبير الأطباء عن خصيتى المريض ووجده قد شفي تماما، أصابه الذهول، وقال لمساعده : أخي صدقني أنا طبيب منذ ثلاث وثلاثين سنة ولم أصادف ما أرى الأن، فرد عليه الطبيب المساعد قائلا : أنا أيضا طبيب منذ ثماني وعشرين سنة ولم أشهد مثل هذا" [٥٠].

وهذا التدخل المقدس لإرشاد الأطباء إلى العلاج الصحيح نصادفه أيضا في معجزات القديسين كوزماس ودامیان، إذ يروى كاتبها قصة مريضة بورم الثدى لجأت إلى ضريح القديسين بعد أن فشل الأطباء وأدويتهم في علاجها، فظهر القديسان لأحد هؤلاء الأطباء في منامه، وأرشداه إلى شق موضع المرض ودهنه بنوع معين - لم يحدده الكاتب- من المراهم[٥١]، وعلى الفور استيقظ الطبيب وأسرع إلى كنيسة القديسين لإجراء الجراحة للمرأة

---

(٥٠) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.22, pp.131-7.

الفتاق Hernia : اصابة تنتج عن خروج الأمعاء من موضعها واختراقها لجدار البطن الداخلى، وينقسم إلى نوعين وفقا لموضع حدوث الاختراق، الأول هو فتاق الثغرة (السرة) hernia hiatus، والفتاق الإربى inguinal hernia . وقد سمى الأخير بذلك نسبة الى مسمى الجزء السفلى من التجويف البطنى قرب ثنية الفخذ والمعروف بـ "الفتحة الإربية". والفتاق بوجه عام يتعرض له أصحاب المهن الذين يحماون على ظهورهم أحمالا ثقيلة أو يشتغلون بأيديهم أشغالا عنيفة قد تؤدى إلى ضغط الأمعاء على جدار البطن، وقد يصيب الإناث أثناء الولادة، أوالأطفال منذ الولادة . ويمكن علاج الأطفال منه إذا لم يتجاوزوا العاشرة عن طريق حزام طبى خاص، وباستثناء ذلك يصبح التدخل الجراحى أمرا ضروريا. لمزيد من التفاصيل، أنظر : الموسوعة الطبية الميسرة على موقع http://www.wataan.com/tib/index.php?badre=4/12

(٥١) ربما يقصد الكاتب نوع من المراهم شاع استخدامه بين المرضى اللاجئين إلى أضرحة القديسين، وكان يتم توزيعه على المرضى عند أضرحة القديسين بالكنائس في وقت معين، ربما عقب صلوات مساء السبت من كل أسبوع، أنظر حاشية ٥٤.

وفقا لإرشادهما، لكنه عندما بلغ الكنيسة دهش لأنه – وفقا لرواية الكاتب– وجد الجراحة قد أجريت بالفعل، وبذات الطريقة التي وصفها القديسان له، وهنا يستطرد الكاتب بقوله :"وهكذا تعلم الطبيب منهما استخدام الدواء الخاص الذي وصفاه"[٥٢].

وإذا كان كُتاب الهجيوجرافيا المعادين للطب التقليدي قد عمدوا إلى الترويج لفشل الأطباء وقصور حرفتهم، فإنهم من ناحية أخرى سعوا إلى كسب مزيد من التأثير بتركيزهم على اختلاف طرق القديسين العلاجية وفعاليتها في مواجهة قصور الطب التقليدي، وعكسوا من خلال ذلك إنطباعا يوحى بأن البيزنطيين خشوا من اللجوء إلى الأطباء، خاصة الجراحين منهم، حتى لا يخضعوا لعمليات جراحية مؤلمة غالبا ما تكون فاشلة ونتيجتها الحتمية هى وفاة المريض، وربما أراد كتاب الهجيوجرافيا غرس هذا الخوف في نفوس أفراد المجتمع واستخدامه سلاحا أساسيا وفعالا في دعايتهم للعلاج المقدس ضد الطب التقليدي. والمطالع لهجيوجرافيا العصر البيزنطي الباكر يلاحظ حرص كتابها على إبراز المقارنة بين خطورة العمليات الجراحية التي يجريها الأطباء لمرضاهم، وبساطة ويسر، والأهم أمان البدائل المتاحة في علاج القديسين، فيروى كاتب معجزات القديسين كوزماس وداميان قصة مريض ظل يعانى من خراج بمفصل الركبة طوال خمسين عاما، أجريت له خلالها عمليات جراحية عديدة، لكنها لم تؤد سوى إلى تزايد حالته سوءً ومواصلة الخراج تضخمه. وهنا كان الكاتب حريصا على إظهار مدى اليأس الذي أصاب المريض ومقاومته العنيفة لإجراء أية جراحة أخرى له بلغت حد اضطرار من ظنهم جراحين إلى تقييده، ثم يواصل سرده لكيفية سهولة شفاء الرجل على يد القديسين باستخدام نوع من المراهم يتألف من الزيت والشمع، مختتما قصته بقوله : "هكذا شفي الرجل بالمرهم الشمعى بعد سنوات طويلة من المعاناة "[٥٣].

---

(٥٢) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.28.

(٥٣) في أحداث هذه القصة، بعد أن يأس المريض من العمليات الجراحية العديدة والفاشلة، ظهر له القديسان في رؤيا منامية وحملاه إلى مستشفى الكنيسة، الموجودة في مبنى ملحق بها، ووضعاه على سرير قرب باب مخزن الأدوية، وشرعا في الإعداد لعملية جراحية، وهنا ظن المريض أنهما طبيبان عاديان سيجريان له جراحة، فهب في ثورة غاضبة معلنا أنه لم يعد بحاجة إلى الجراحة وأنه لم يأت إلا للقديسين، ولأن كوزماس كان على وشك البدء في الجراحة، ودامیان يجد صعوبة في السيطرة على الرجل، فقد اضطرا إلى تقييد قدميه، وشقا الجرح وشرعا في تنظيفه، ثم لفاه بضمادات سميكة، وقد دهش المريض لعدم استخدامهما أى مراهم، ولأنه أجرى عمليات جراحية قبلا فقد احتج قائلا :" لقد أجريتما جراحة لى ولم تستخدما ضمادات كتانية مقطلة، رغم أن هذا ما يوصى به العلم، وما تعلمته من مرضى والعمليات المتكررة التي أجريت لى"، فأجابه القديسان :"أتقصد أن تعلمنا كيف نعالجك؟"، وبعد أيام قليلة زاره القديسان وعالجاه

كذلك جسد كاتب معجزات ارتيميوس نفس الاتجاه عند تناوله لحالة امرأة مـصابة بالفتاق، بقوله: "أين شهرة أبقراط وجالينوس الذائعة، وأدعياء العلاج الآخرين الذين لا يحصى عددهم؟ أولئك الذين لا زالوا يتبعون أساليبهم العقيمة، ففي هذا النوع من الفتاق الأنثوى يلجأ الأطباء إلى شق الجلد المترهل، لكن أرتيميوس لم يتبع آيا من هذه الممارسات ..، بل عالج هذه المشكلة الطبية باستخدام المرهم الشمعى..". وهنا يستطرد الكاتب بقوله :"ولهـذا يلجـأ الناس للقديسين والقديسات"[٥٤]، وهو استطراد له دلالته، إذ ربما يقدم من خلاله رؤية عدد من

باستخدام ضمادة جديدة مقطلة بنوع من المراهم الشمعية، كان يوزع على المصلين في كنيسة القديسين، وعندئذ شعر المريض بألم نتيجة تجمع كل ملوثات وإفرازات الجسم الضارة وخروجها من الجرح .
Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.30, pp.171-2.

(٥٤) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.24 , pp.141-5.

من الملاحظ أن المعجزات الشفائية لقديسى العصر البيزنطي الباكر تشير إلى استخدام نوع من المراهم الشمعية للعلاج، أطلقت عليه اسم *kêrôtê*، وفي هذه الحالة علق الكاتب على هذا المرهم بقوله : "عالج هذه المشكلة الطبية باستخدام المرهم الشمعى *kêrôtê* المعد لعلاج مثل هذه الحالات بواسطة أولئك المتمرسين في عمليات الفتاق"، ولعله يقصد هنا القديسين أرتيميوس ويوحنا وفبرونيا. وفي معجزة أخرى يحدثنا الكاتب عن رجل من أماستاريس يقطن بالقسطنطينية، ظل ينتظر رؤيا اعجازية للقديس لمدة ثلاثة أيام، راح يتوسل خلالها لقساوسة الكنيسة أن يعطوه هذا المرهم الشمعى . Crisafulli , *St. Artemios* , mir.3 , pp.81-3. ويبدو أن هذا المرهم كان يوزع عند أضرحة الشفاء داخل الكنائس في وقت محدد، حيث تشير إحدى معجزات القديس أرتيميوس إلى شخص يدعى ثيودور أرسل ابنه المريض بالفتاق مع صديق له يدعى ثيوجنيوس إلى كنيسة القديس يوحنا بروذروموس حيث ضريح القديس أرتيميوس، وكان ثيوجنيوس يعانى هو الآخر من مرض بصدره، ويخبرنا كاتب المعجزات أنه :"في يوم السبت، عشية يوم المسيح، وقت صلوات المساء، غط ثيوجنيوس في نوم عميق، فظهر له القديس أرتيميوس وقال له : إنهض وخذ بعض من المرهم الشمعى وادهن صدرك به، وتناول بعضه كطعام، وادهن خصيتي الطفل، وعلى الفور استيقظ ثيوجنيوس وهو يقول :" لقد أيقظتنى كلمات القديس، وكانت تلك بالفعل ساعة إتمام صلوات منتصف الليل وموعد توزيع المرهم الشمعى المقدس". Crisafulli , *St. Artemios* , mir.33 , pp.175-7.

وذات المعلومة يقدمها كاتب معجزات القديسين كوزماس وداميان، عندما يشير إلى أنه كان من المعتاد، عند ضريح القديسين في كنيستهما بالقسطنطينية، توزيع هذا النوع من المرهم الشمعى (الـ kêrôtê)، على المصلين والمرضى عند الساعة السادسة من صلوات مساء السبت، وأنه عند الساعة التاسعة من الصلوات ظهر القديسان لمريض خراج مفصل الركبة وعالجاه بضمادة ممزوجة بالـ kêrôtê دهنا بها موضع المرض. Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.30.

وعلى ذلك يمكن القول بأن المرضى اللاجئين إلى أضرحة القديسين ربما هدفوا من ممارسة طقس "حضانة المعبد"، ليس فقط الأمل في حدوث رؤيا منامية للقديس يعالجون فيها بصورة إعجازية، بل أيضا الحصول على هذا النوع من المراهم الشمعية، الذي ربما اعتقدوا في قدرته الإعجازية على شفاء الامراض دون الحاجة إلى العمليات الجراحية المؤلمة والشديدة الخطورة. وليس من المعروف من أى المواد كان يعد هذا

كتاب الهجيوجرافيا لأحد أهم الأسباب التي قد تدفع المرضى إلى تفضيل علاج القديسين على نظيره الطبى.

ونستطيع أن نلاحظ بسهولة ووضوح الصورة التي حرصت هذه الفئة من الكتـــاب على رسمها لتصوير مدى المعاناة والآلام التي يعانى منها المرضى ممن قادهم سوء حظهـــم إلى الخضوع لعمليات جراحية، دائما ما تكون فاشلة، فكاتب معجزات القـــديس أرتيميـــوس يروى قصـة ستيفن الشماس بكنيسة آيا صوفيا، الذي أصيب بالفتاق الإربى، ويـــصف علـــى لسانه قصة معاناته مع المرض والأطباء الجراحين بقوله : "جربت علاجـــات كثيـــرة مـــن الأعشاب والمراهم دون جدوى، فنصحنى والداي بأن أعرض نفسى على جراحي مستـــشفى سامسون Samson ...وبعد أن خضعت لعلاج بالكى لثلاثة أيام، أجريت لى عملية جراحيـــة في اليوم الرابع، إنها لمعاناة قاسية عانيتها وأنا مستلقى على سرير الجراحة، سأغفل الحديث عن تلك الأمور المرعبة التي مرت بي، لقد فقدت بالفعل كل أمل في الحياة على أيدي هؤلاء الأطباء، وفقدوا هم أنفسهم الأمل في بقائي على قيد الحياة، ولكن الله استجاب لدموع والـــداي وأعاد لي الحياة، والتئم الجرح وبدى الأمر طبيعيا، وظننت أنى شفيت، لكن بعد برهة قصيرة من الوقت ساءت حالتي وعادت إلى صورتها الأولى، وعندئذ قررت الذهاب إلى القديس الذي سمعت عن معجزاته الكثير، وأخذت بعضا من زيت قنديله وسكبته على خصيتي، وفعلت ذلك مرارا حتى شفيت"، وكان ختام القصة الطبيعي من وجهة نظر الكاتب أن يصور المريض في حالة شديدة من الندم ودموعه تنهمر وهو يواجه ضـــريح القـــديس قـــائلا : "أيهـــا القـــديس أرتيميوس، باسم الرب الذي منحني نعمة الشفاء، لن يلمسنى أي طبيب على وجه الأرض مرة أخرى"[٥٥].

وإذا كان ستيفن الشماس قد ارتكب من وجهة نظر كاتب المعجزات خطيئة بلجوئه إلى الأطباء والجراحة، استحق التكفير عنها بتعرضه لنوع من العقاب القاسي تجسد في المعاناة والألم الذي تعرض لهما على أيدى هؤلاء الأطباء، فإنه في معجزات أخرى قدم حالات لمرضى دفعهم الخوف من الجراحة إلى رفضها منذ البداية، مفضلين اللجوء إلى

المرهم، وإن كان فيستوجييه يعتقد بأنه خليط من الشمع والماء، بينما يرى نيسبيت أنه ربما كان يعد من زيت يستخرج من قنديل القديس أو الشموع المشتعلة عند ضريح القديس.

Festugière , *Saints Côme et Damien* ,m.30 , n.5 ; Nesbitt , *Introduction* ,pp.22-3.

وعن حالات أخرى لمرضى انتظروا الحصول على هذا المرهم الشمعى، أو استخدموه كعلاج لأمراضهم، أنظر :

Crisafulli , *St. Artemios* , mir.13 , p.101 ; mir.15 , pp.103-7 ; mir.24 , pp.141-145.

(٥٥) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.21 , pp.125-30.

ضريح القديس أرتيميوس، منهم جورج صانع البراميل الذي عانى من آلام حادة بسبب إصابته بالفتاق، وعندما نصحه بعض الأصدقاء باللجوء إلى الجراحة، هب فيهم صائحا: "ويلكم، أتدفعون بى نحو الموت، ألا تعلمون أن كثيرين لقوا هذا المصير عندما سلموا أنفسهم للجراحين"[٥٦]. ومنهم أيضا مريض أخر بالفتاق يدعى جورج، ظل يبكى لفترة طويلة أمام ضريح القديس أملا في رؤيا منامية، فنصحه البعض باللجوء إلى أحد الأطباء الجراحين، فارتاع للفكرة ورد عليهم قائلا: "ألا تدرون سوء قدر الكثيرين ممن عهدوا بأنفسهم إلى الجراحة، ألا تدرون أن الموت كان مصيرهم المحتوم، سأعهد بنفسى إلى الرب وشهيده وليفعلا بى ما يترأى لهما". وفي بقية أحداث هذه القصة عمد الكاتب إلى استخدام صورة كاركاتيرية تعكس ذات روح السخرية والتهكم التي صبغت اسلوبه ورؤيته للطب التقليدي والأطباء، ذلك عندما صور الجراح في هيئة جزار يجري عملية جراحية باستخدام أدوات الجزارة، وعندما أختتم قصته بالقول :"هذه الأشياء حققها أرتيميوس الطبيب المقدس، ماذا فعلت أنت أيها الجراح المتبجح؟ إنك لا زلت تستخدم ما استخدمه أدعياء العلاج القدماء، إن عقدك أبطل ومشرطك أتلفه الصدأ، إن مراهمك وأدويتك وأدواتك الجراحية عديمة الجدوى"[٥٧].

ومن الملاحظ هنا ؛ أن كاتب معجزات القديس أرتيميوس عند مقارنته بغيره من كتاب الفئة المعادية للطب التقليدي، كان أشد عنفا وحدة، وبالطبع سخرية، في هجومه الذي استهدف به الأطباء عامة والجراحين منهم بصفة خاصة، ولا يعنى هذا أن كتابات الآخرين خلت تماما من الإشارات إلى فشل الجراحين والآلام التي تصاحب عملياتهم الجراحية. ففي معجزات القديسين كوزماس وداميان عبر كاتبها عن ذات الإتجاه في مجموعة من قصص المرضى الذين لجئوا إلى ضريح القديسين، لكنه ربما كان حريصا على أن يكون هجومه مستترا يفهمه القراء ضمنا من سياق الأحداث، دون اللجوء إلى العبارات الهجومية الصريحة والمصبوغة بنبرة الكراهية والعداء والسخرية الواضحة التي استخدمها كاتب معجزات القديس

---

(٥٦) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.44 , pp.219-23.

(٥٧) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.25 , pp.145-7.

في بقية أحداث القصة يزور القديس أرتيميوس المريض جورج في رؤيا منامية متخفيا في هيئة جزار، يحمل أدوات الجزارة ووعاء مملوء بالماء، وشق خصيتيه وغسلهما بالماء، وهنا صاح فيه جورج قائلا : "أنظر ماذا فعلت بى أيها الجراح الجزار، لقد رفضت أن أسلم نفسى لك، فأخرجت ما بداخلى، وقضيت على حياتى، من الذي أرسلك لتقتلنى؟"، واستيقظ الرجل مرتاعا وهو يبحث عن أدوات الجزارة، وسرعان ما أدرك أنه شفي برؤيا إعجازية .

أرتيميوس، ففي إحدى هذه القصص راح يروى معاناة مريضة بورم الثدى وفشل الأطباء وأدويتهم في علاجه، وعندما نصحها الأطباء بأن تخضع لجراحة، رفضت "خوفا من أن يكون موتها محصلة طبيعية للجراحة"، وأجابتهم بقولها :"من الأفضل لى اللجوء إلى قديسي المسيح، كوزماس وداميان"[٥٨]. وفي قصة أخرى راح يروي ألم أم تحجر لبن الرضاعة في ثدييها، ومنعها حياؤها من أن تعرض نفسها على الأطباء لعدة أيام، ولكن مع تزايد الألم وانتفاخ الثدى، اضطرت إلى اللجوء إليهم، فنصحوها بالخضوع لجراحة، وهنا أصابها هلع شديد ولجأت إلى ضريح القديسين كوزماس وداميان، فظهر القديسان في رؤيا منامية لزوجها متخفيين في هيئة طبيبين، وأبلغاه أنهما سيجريان جراحة لزوجته في هذا اليوم، ففزع الرجل وراح يتوسل لهما بقوله: أرجوكما لا تفعلا ذلك بها، إننى لم أرسلها إلى القديسين إلا لأقيها مشرط الجراحة، فهى لن تقوى على خوض تلك المعاناة التي تعرفونها جيدا[٥٩].

وإذا كان فشل الأطباء وقصور حرفتهم هو العنصر الرئيسى الذي حرص بعض كتاب الهجيوجرافيا على تضمينه داخل صورتهم السلبية عن الطب التقليدي، فقد عمدوا أيضا-كما أشير سابقا- إلى إلصاق صفات الطمع وابتزاز المرضى بالأطباء، كنوع آخر من العقاب الذي لابد -من وجهة نظرهم- وأن يلحق بأولئك الذين يفضلونهم على اللجوء إلى القديسين، وفي هذا الصدد غالبا ما ربط هؤلاء الكتاب بين فشل الأطباء وقصور حرفتهم وإنفاق المريض لكل أو معظم ما يملك نظير هذا الفشل، وهو ربط يبدو متعمدا لم يقصد به الفقراء والمعدمين فحسب، بل أيضا الأثرياء وأفراد الطبقة الأرستقراطية، أو لعله رسالة

---

(٥٨) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.28.

(٥٩) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.29.

من الملاحظ كذلك أن كاتب معجزات القديسين كوزماس وداميان عبر ضمنا في قصص أخرى عن مفهوم الخطيئة التي يقترفها المرضى بلجوئهم إلى الأطباء والجراحة كبديل عن ضريح القديسين، وتكفيرهم عنها بالتعرض لنوع من العقاب القاسى تمثل في ألم ومعاناة العمليات الجراحية، كقصة مريض مسن بالاستسقاء أمضى عدة أيام عند ضريح القديسين أملا في رؤيا اعجازية دون جدوى، وعندما يأس راح يهذى بكلمات مسيئة لهما، فظهرا له يحملان مشرطا وأجريا له جراحة سببت له ألما شديدا، وعندما ندم الرجل على إساءته لهما، عالجاه باستخدام المرهم الشمعى. Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.1.

وفي قصة أخرى، أمضى مريض بخراج معوى بعض الوقت في كنيسة القديسين إنتظارا لرؤيا إعجازية، وعندما نفذ صبره استدعى أطبائه الخصوصيين، وتم إجراء جراحة له داخل الكنيسة، لكنهم فشلوا في إزالة الخراج، بل على العكس ظهر العديد منه حول الأول، وعندما ندم الرجل منحه القديسان رؤيا إعجازية شفي خلالها. Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.5.

تحذيرية وجهها كتاب الهجيوجرافيا لكل فئات المجتمع البيزنطي بعدم اللجـــوء إلـــى الطـــب التقليدي لأنه فاشل ومؤلم ومبدد للأموال، سواء للفقراء أو للأثرياء.

وقد عبر كاتب سيرة القديسة ماترونا البيرْجيّة St. Matrona of Perge أواخـــر القرن الخامس الميلادي عن هذه الرسالة فـــي حـــوار دار بـــين ســـيدتين أرســـتقراطيتين، أنطيوخيانى Antiochiane وصديقتها يوفيميا Euphemia، حينما راحت الأولى تشكو مـــن اشتداد المرض عليها وعجز الأطباء عن علاجها، وأنها رغم إنفاقها أموالاً طائلة علـــيهم إلا أنهم لم يتمكنوا من تخفيف آلامها، بل "أسهموا من خلال انعدام كفاءتهم في زيـــادة مرضـــها سوء". وهنا أراد الكاتب إطلاق رسالته التحذيرية من خلال عبارة أوردها على لسان يوفيميا، جاء فيها :"سيدتى النبيلة، لم أنفقتِ كل هذا المال على الأطباء الذين لا يهتمون إلا بحـــصده دون أن يدروا شيئا عن كيفية مساعدة مرضاهم ؟، عليك بدلا من اللجوء إليهم، الاقتراب من الرب الكريم، الطبيب الذي لا يأخذ أجرا "[٦٠]. ودلالة هذه الرسالة لا تكمن فقط في أن كاتبها عبر من خلالها عن الاتجاه المعادى للطب التقليدي، بقدر ما تكمن في كونه ضـــمنها داخـــل المعجزة الشفائية الوحيدة التي نسبها إلى القديسة.

وفي ذات القرن ضمن كاتب سيرة القديسة اليزابيث St. Elisabeth نفس الاتهـــام للأطباء في واحدة من ثلاث معجزات شفائية نسبها للقديسة، روى فيها قصة فتاة تنتمى إلـــى عائلة "نبيلة وثرية" وتعانى من نزيف بعد انتهاء فترة الحيض، كان أباها قد "أنفـــق الجانـــب الأكبر من ثروته على الأطباء دون أن يفيد ذلك ابنته، لأن مرضها كان يفوق قدرات حرفتهم، وعندما يأس من شفائها على أيدى الأطباء لجأ بها إلى القديسة"[٦١].

وإذا كان هؤلاء الكتاب قد سعوا من خلال هذه الرسالة التحذيرية إلى إحداث تأثير ما على الطبقة الثرية من المجتمع، فلا شك في أنهم توقعوا لها تأثيرا أقـــوى وأعمـــق بـــين أوساط الطبقة الفقيرة والمعدمة، ولذلك سعوا إلى إبراز المقارنة بين جشع وابتـــزاز الأطبـــاء الخاليين من أية رحمة أو ضمير، والقديـــسين المعـــالجين الـــذين دومـــا مـــا لقبـــوهم بـــــ

---

(٦٠) Life of St. Matrona of Perge , trans. J.Featherstone & C.Mango , *Holy Women of Byzantium : Ten Saints lives in English Translation* , ed. A-M. Talbot , Washington, D.C., 1996 , pp.13-69, esp.49.

حدد كاتب السيرة هوية أنطيوخيانى ويوفيميا، فالأولى كانت زوجة والى القسطنطينية البطريق سفوراكيوس Sphorakios (٤٧٤-٤٩١م)، والثانية هى إبنة الإمبراطور مارقيان Marcian وزوجة أنثيموس Anthimus أوغسطس الغرب خلال الفترة (٤٦٧-٤٧٢م). أنظر: Ibid , p.49, n.87 , 89.

(٦١) Life of St. Elisabeth the Wonderworker , trans. V.Karras , *Holy Women of Byzantium : Ten Saints lives in English Translation* , ed. A-M. Talbot , Washington, D.C., 1996 , pp.117-136 , esp.p.134.

"Anargyroi " لأنهم يقدمون علاجهم الإعجازى مجانا [٦٢]. ففي معجزات القديسين يوحنا وكيروس يصور كاتبها حالة مريض كفيف راح يشكو بؤس حاله عند ضريح القديسين بقوله: "كنت فقيرا، لكننى الأن صرت أشد فقرا، فكل ما كنت أمتلكه قبل سقمى أنفقته على الأطباء"[٦٣]. وفي معجزات القديس أرتيميوس كان الأطباء يعملون بالدرجة الأولى من أجل الربح، وراح كاتبها يصور جشعهم في قصة الأم صوفيا التي انفطر قلبها على ابنها ذو التاسعة من عمره والمصاب بالفتاق، وعندما استدعت أحد أطباء القسطنطينية سألها :"كم ستدفعين لقاء علاج ابنك؟"، فأجابته: "إننى فقيرة، ولكنى سأدفع لك كل ما أملك"، فطلب منها

---

(٦٢) *Anargyroi* : لقب أطلق على القديسين المعالجين، ويعنى "الذين لا يدفع لهم فضة"، أى غير المرتزقة.
Festugière , *Saints Côme et Damien* ,prol.

ترى إفيلينى باتلاجين أن القديسين رغم عدم تلقيهم أجر مادى نظير علاج مرضاهم، إلا أنهم بوجه عام تلقوا مقابلا من نوع أخر، سواء أكان هذا المقابل هو الولاء لعبادتهم أو دعم النشاط الخيرى أو القيام بأعمال وخدمات لصالح ضريح أو كنيسة القديس
.Patlagean , E., *Pauvrete economique et pauverte social a Byzance , 4e-7e* siecles , Paris , 1977 , p.352 .

وفي معجزات القديس أرتيميوس، نذرت سيدة فقيرة نفسها للخدمة بكنيسة القديس يوحنا برودروموس في صلوات العشاء وعشية عيد الكنيسة لقاء علاج إبنها، كذلك نجد حالات لمرضى قضوا فترة وجودهم عند ضريح القديس في القيام بأعمال خدمية للكنيسة، فصانع السفن ثيوتيكنوس Theoteknos قام خلال إقامته بالكنيسة بعدد من أعمال النجارة، منها إصلاح درابزين ضريح القديس، وألكسندر ذو التاسعة من عمره ساعد في تعليق وتزيين القناديل وتوزيع الماء في مناسبة احتفال الكنيسة بعيد القديس ارتيميوس، هذا فضلا عن توقع ممارسة المرضى للطقوس والصلوات الدينية داخل الكنيسة .
Crisafulli , *St. Artemios* ,mir.27 , pp.153-5 ; mir.36, pp.189-193.

كذلك كان متوقعا من المريض أن يعد قنديلا يضاء بالزيت والخمر كنذر للقديس، فكاتب معجزات القديس أرتيميوس يذكر قصة رجل إفريقى "أبحر من إفريقيا قاصدا المدينة المقدسة، تاركا ورائه إبنه المريض، وببلوغه كنيسة القديس يوحنا، أعد باسم ابنه قنديلا من الزيت والخمر وفقا للعرف السائد"، وقد ترك الإفريقى القنديل مشتعلا طوال فترة إقامته بالكنيسة، وعند رحيله وضع مخلفات القنديل في قنينة زجاجية وحملها معه ليدهن بها أجزاء ابنه المريضة. وهذا النذر تناولته بقية المعجزات كأمر مألوف، حيث أشارت إحداها إلى أن "الذي على مرضى الفتاق عمله أن يعدوا قنديلا"، وفي معجزة ثالثة أشار الكاتب إلى أنه قرب الضريح "قنديل القديس" وأن المرضى يشربون منه، وفي معجزات أخرى نصح المرضى بدهان زيت هذه القناديل على الأجزاء المريضة.
Crisafulli , *St. Artemios* , mir.4 , pp.83-5 ; mir.23 , pp.137-141 ; mir.15 , pp.103-7 ; mir. 19 , pp.121-3 , mir.37 , 193-7.

ويبدو أن هذا الزيت إلى جانب المرهم الشمعى (الـ kêrôtê)، مثلا علاجا استخدمه المرضى اللاجئون إلى أضرحة الشفاء . أنظر حاشية (٥٤).

(٦٣) **Festugière** , *saints Cyr et Jean* ,mir.46.

إثنتا عشرة نوميزما، ولأنها لم تستطع دفع هذا الأجر الباهظ فقد اضطرت إلى صرف الطبيب، واستدعت آخرا فطلب منها ثمان نوميزمات، وهذه المرة أقسمت صوفيا وهى تتضرع للطبيب أنها لا تملك قطعة نقد واحدة، ذهبية أو فضية، لتعطيها له، فتركها الطبيب وانصرف دون أن يرق قلبه لتوسلاتها[٦٤].

ومن الملاحظ ؛ أن الأجر الذي حدده كاتب معجزات القديس أرتيميوس في قصة صوفيا قد يكون مبالغا فيه، خاصة وأنه كان مدفوعا برغبة جامحة في إظهار جشع لا حدود له للأطباء، ورغم صعوبة تحديد الأجور الحقيقية التي تقاضاها الأطباء من المرضى، خاصة وأنها علاقة تبدو شخصية فردية بين الطبيب والمريض، تفتقد إلى شاهد وثائقى أو مصدري موثوق به، إلا أنه يمكننا على الأقل تخيل ضخامة هذا الرقم بتقدير القيمة الشرائية للنوميزما خلال العصر الباكر، ففي عهد جستنيان كان متوسط تكلفة إطعام الرجل العامل سنويا حوالى خمس نوميزمات، وفي بداية القرن السابع كان أجر خادم بأحد الحمامات العامة يقدر بنحو ثلاث نوميزمات سنويا [٦٥]. كما يمكن تخيل حدود هذه المبالغة في ضوء بعض أرقام الأجور التي أشارت إليها مصادر العصر البيزنطي الباكر غير الهجيوجرافية، فمتوسط أجور الأطباء العاملين في القصور الامبراطورية والمستشفيات الحكومية خلال القرن السادس الميلادي كان يقدر بحوالى خمسين نوميزما سنويا [٦٦]. وكاتب معجزات أرتيميوس نفسه كان

---

(٦٤) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.36, pp. 189-193.

في بقية أحداث القصة ينصح بعض الأصدقاء صوفيا بأن تأخذ إبنها إلى كنيسة القديس يوحنا برودروموس بحى أوكسيا حيث ضريح القديس أرتيميوس، وهناك يظهر لها القديس في رؤيا منامية ويسألها :"طلب الأطباء إثنتا عشرة نوميزمات وثمانى نوميزمات لعلاج إبنك، كم ستدفعين لى إذن لأشفيه؟!"، فأجابته : "لدى بعض الأشياء الصغيرة زهيدة القيمة، سأبيعها وأمنحك ثمنها، فقط إشفي صغيرى ووحيدى، فأنا أرملة ولن أرزق بغيره"، فقال لها القديس :"لا أريد شيئا باستثناء ترددك على صلوات العشاء التي تقام هنا"، فوعدته صوفيا بأنها لن تتغيب عن الصلوات طالما حيت، وعندئذ لمس القديس موضع المرض قائلا :"إن المسيح، أبو اليتامى وحامى الأرامل، يشفيك، خذى ابنك فقد أعطى لك".

(٦٥) Jones , A.H.M., *The Later Roman Empire (284-602)* , Oxford, 1964, vol. I , 447-8.

(٦٦) وفقا لمدونة جستنيان Codex Iustinianus تقاضى الأطباء خمسين نوميزما سنويا، بينما تقاضى الأساتذة والمدرسون سبعين، وتقاضى المحامون ما بين خمسين واثنتين وسبعين. ويبدو أن ممارسة مهنة الطب على المستوى غير الرسمى كان يدر على الأطباء دخلا إضافيا من خلال الأجور التي يتقاضوها من المرضى، وعلى ذلك تراوح الدخل السنوى لإثنين من كبار أطباء ولاية افريقيا في القرن السادس بين سبعين وتسع وتسعين نوميزما، ولا شك في أن هذا الدخل يزداد في العاصمة الإمبراطورية، أنظر،
Nutton , *Gallen to Alexander* , p. 11.
وعن قيمة النوميزما المرتفعة إبان القرنين الخامس والسادس الميلاديين، أنظر:

أقل مبالغة في تحديده لأجر طبيب في حالة أخرى لقس مريض حمله أصدقائه إلـــى طبيـــب فارسي يقطن بالقسطنطينية، حيث حدده بأقل من نوميزمـــا واحـــدة : "ســـميزيس *semissis* وتريميسّيس *tremissis* وأربع قيراطيا *keratia*"[٦٧]. وفـــي معجـــزات القديـــسين كيـــروس ويوحنا، كانت المبالغة أقل عندما حدد كاتبها أجر طبيب فشل في علاج مريض بالكلي بثلاث نوميزمات[٦٨].

ورغم ما يبدو من مبالغة واضحة في الاتهامات التي ضمنها هؤلاء الكتاب داخـــل الصورة التي أرادوا عكسها عن الطب التقليدي ومحترفيه في بيزنطة إبان العصر الباكر، إلا أننا نجد صدى لها في بعض مصادر ذلك العصر التاريخية، فأميانوس مـــاركيلليوس رغـــم إقراره بحاجة المجتمع البيزنطي الدائمة لحرفة الطب، إلا أنه وصفها بأنها "لم تكن رخيـــصة أو مقتصدة"[٦٩]، كما راح سوزومين Sozomen مؤرخ الكنيسة في النصف الأول من القـــرن

Grierson , Ph., "The Tablettes Albertini and the Value of the Solidus in the Fifth and Sixth CenturiesA.D.", *Journal of Roman Studies* 49/1-2(1959), pp.73-80.

(٦٧) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.23, pp.137-141.

النوميزما nomisma أو الصولدى solidus هى عملة ذهبية بيزنطية، تعادل ٧٢/١ من الجنيه الذهب، وتساوى ٢ سيميزيس semissis، أو ٣ تريميسّيس tremissis، أو ١٢ ميلياريزيا miliaresia، أو ٢٤ قيراطيا keratia .

Grierson , Ph., *Byzantine Coinage* , Washington D.C., 1999 , pp.57, 59 , 60.

(٦٨) Festugière , *saints Cyr et Jean* ,mir.40.

من الملاحظ أنه رغم المبالغة الواضحة في تقدير أجور الأطباء، إلا أن ذلك لا يعنى أن أجور الأطباء لم تكن تفوق قدرات المرضى، خاصة من الطبقات الفقيرة والمعدمة، وربما كان ارتفاع أجورهم أحد الأسباب التي دفعت هؤلاء المرضى إلى تفضيل العلاج المقدس المجانى على العلاج الطبى، أنظر حاشية (١٥٩)، (١٦٠). ومن ناحية أخرى، ربما يمكن القول بأن ارتفاع أجر الأطباء فى الحالات السابقة قد يرجع إلى خطورة طبيعة المرض وارتفاع تكلفة علاجه، وأنه لم يكن بالضرورة الأجر الاعتيادي للأطباء، لاسيما وأن الذين يذهبون إلى القديسين هم الذين فقدوا الأمل في العلاج على أيدى الأطباء.

في بقية أحداث القصة، يلجأ المريض بعد فشل الأطباء إلى ضريح القديسين كيروس ويوحنا بكنيستهما، فيظهرا له في رؤية منامية ويوبخاه لأنه لم يثق منذ البداية في قدرتهما العلاجية، ويأمراه بأن يهب لخزانة الكنيسة ثلاث نوميزمات لقاء علاجه، وهذا المثل يعد من الأمثلة النادرة التي يطلب فيها القديسين الـــ anargyroi أجرا نظير علاج مريض. وفي سيرة القديسين كوزماس ودامیان المضمنة في السنكسار القبطى اشارة عن تلقى داميان ثلاث بيضات من امرأة نظير علاجها، الأمر الذي دفع كوزماس إلى مقاطعته، فظهر له المسيح وأمره بألا يغضب من أخيه لأنه لم يأخذ أجرا إلا بعد أن أقسمت عليه المرأة باسم المسيح، فخاف من اليمين وأخذهم، وعلى ذلك مضى كوزماس إلى أخيه واتفقا على أن يعالجوا كل من يأتى إليهما دون أجر، سواء أكان فقيرا أم ثريا. المخطوط الأصلى لسير قزمان ودامیان، ص١١-١٥.

(٦٩) Ammianus Marcellinus , *Later Roman Empire* , p. 253.

الخامس يمتدح الطبيب جيرونتيوس Gerontius لـ " كرمه ونشاطه في توظيف حرفته لصالح الفقراء والأثرياء على السواء، عكس كثيرين من أقرانه"[٧٠]. وفي القرن السادس وصف زكريا الميتيليني Zachariah of Mitylene أحد أطباء عصر جستنيان، يدعى سرجيوس Sergius، بأنه "كان فاسقا وولعا بالنساء، جشعا ونهما وعاشقا للمال"[٧١]، كذلك هناك إشارات عديدة في مصادر العصر التاريخية تلمح إلى فشل الأطباء وقصور حرفتهم في مواجهة قوى القديسين العلاجية[٧٢]. وفيما يتعلق بقسوة وألم العمليات الجراحية يتحدث يوحنا الأفسوسي عن مرض الإمبراطور جستين الثاني الذي "تزايد عليه ألم انحسار البول، وراح يتلوى من الحصوات التي سدت مثانته، فجاء الأطباء لاستخراجها، وطلبوا منه، وفقا لطريقتهم الجبانة المعتادة، أن يناولهم المشرط بيديه، فقال لهم: لا تخشوا شيئا، لن يلحق بكم أذى إن مت"[٧٣]، وقد اعتمد بعض الباحثين على هذه الرواية للقول بأن سمعة الأطباء قد تأثرت إلى الحد الذي جعلهم قلقين بشأن مصيرهم إذا ما أخفقت عملياتهم الجراحية[٧٤].

---

(٧٠) Sozomen , *Ecclesiastical History* , book.viii , ch.vi.

(٧١) Zachariah of Mitylene , *The Syriac Chronicle* , trans. F.J. Hamilton & E.W. Brooks , London , 1899 , pp.226-27.

ولد زكريا الميتيليني في غزة أواخر القرن الخامس، درس القانون في الاسكندرية وبيروت في عهد زينون، ثم ارتحل إلى القسطنطينية وعمل بها محاميا، وكتب بها مؤلفه التاريخي خلال الفترة (٤٩١-٥١٨م)، والذي يغطي تاريخ الكنيسة خلال الفترة (٤٥٠-٤٩١م)، ويبدو أنه اتبع المذهب الخلقدوني، ولذلك عين أسقفا لميتيليني، وتوفي بعد عام ٥٣٦م . Ibid , p. 3.

(٧٢) أنظر حاشية (٨٠)، (٨١)، (٨٢)، (٨٣).

(٧٣) John of Ephesus , *The Third Part of the Ecclesiastical History of John of Ephesus* , trans. R. P. Smith , Oxford , 1860 , Liber iii , p.177.

الجدير بالذكر أن ترجمة هذه الرواية كما جاءت في الترجمة العربية للنص السرياني، وردت كالتالي: "كان يتعذب من الألم الشديد ومن الحصوات التي تسبب له ألما شديدا في أمعائه، وبينما كان على هذا الحال من العذاب، جاء الأطباء ليختتنونه وهم خائفون كعادة الأطباء، فطلبوا منه أن يعطيهم السكين، أما هو فقد استحلفهم ألا تأخذهم به شفقة لكي يموت، قائلا لهم: لا تخشوا شيئا فليس عليكم مسئولية إن مت". يوحنا الأسيوي، تاريخ الكنيسة، ترجمة صلاح عبد العزيز محجوب، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٣٦. وقد اعتمد ماجولياس (Magoulias, *Byzantine Medicine* , p. 138.) على هذه الرواية في إصدار حكم عام بأنه "كان من المعتاد في حالة الجراحة لشخص الإمبراطور أن يحصل الأطباء على المشرط من يديه شخصيا قبل شروعهم في اجرائها، وهو ما يمكن اعتباره ضمانا لعدم تحملهم المسئولية وبالتالي العقاب إذا ما فشلت الجراحة". ولا يدري الباحث مدى مصداقية هذا الحكم، خاصة وأنها -على حد علمه- الرواية الوحيدة التي صادفها في المصادر البيزنطية.

(٧٤) Haldon , *Supplementary Essay* , p. 44 ; Magoulias , *Byzantine Medicine* , p. 138.

ولاشك في أن ترديد بعض المصادر التاريخية لذات الاتهامات التي وجهتها فئة من كتاب الهجيوجرافيا للأطباء، أمر يثير التساؤل ويدفع إلى البحث في مدى تأثير الدعاية الهجيوجرافية المعادية للطب التقليدي بما تضمنت من اتهامات ورسائل تحذيرية على طوائف وفئات المجتمع البيزنطي، ومدى مصداقية هذه الصورة مع الواقع الحياتى لممارسات الطب بشقيه التقليدي والمقدس، وأثر ذلك كله على وضع مهنة الطب ومكانة محترفيها في بيزنطة العصر الباكر. وهى قضايا، مع صعوبة البحث فيها وتقديم تحليلات قاطعة بشأنها، يمكن تلمس بعض جوانبها في ضوء بعض الإشارات المتناثرة داخل المصادر التاريخية المعاصرة، وهنا أيضا يمكن تقديم قراءة أخرى لمصادرالبحث الرئيسية ممثلة في الكتابات الهجيوجرافية ذاتها.

وبداية ؛ ينبغى التأكيد على أن الدين والمعتقدات الدينية الشعبية كانا يمثلان ركنا أساسيا في حياة المجتمع البيزنطي اليومية، ولم يقتصر ذلك على الطبقة الفقيرة الأمية بحكم منطقية كونها أكثر الطبقات تأثرا بهذه المعتقدات، بل تجاوز هذا التأثير حدود العلم والثقافة والنبالة ليشمل الطبقتين الوسطى والأرستقراطية وكثيرين من متعلميها ومثقفيها، ويستطيع المطالع لمصادر العصر التاريخية أن يلاحظ هذا التأثير بسهولة، فمؤرخ القرن الرابع أميانوس ماركيللينوس يظهر قبولا شعبيا متزايدا للتمائم والرقية والتعاويذ السحرية بين كافة طبقات المجتمع[٧٥]، وفي القرن السادس الميلادي كان بروكوبيوس Procopius يعتقد في السحر والأرواح الشريرة وقدرتهما على ايذاء البشر[٧٦]، كما أبدى كل من ثيوفلاكت سيموقاطا Theophylact Simocatta [٧٧]وكاتب الحولية الفصحية المجهول[٧٨] إيمانا بالغا بمعجزات

---

(٧٥) Ammianus Marcellinus , *Later Roman Empire* , pp. 96-7 , 359 , 316 , 354.

(٧٦) لمزيد من التفاصيل عن تأثر بروكوبيوس بهذه المعتقدات، أنظر :

Procopius , *Secret History* , pp. 149-55, 223-7 , 263 ; Cameron , A., *Procopius and the Sixth Century* , London & New York , 1996 , pp. 88-91.

بروكوبيوس، التاريخ السرى، ص١٠٥-١٠٧، ١٣٨-١٣٩،١٥٢.

(٧٧) ولد ثيوفلاكت سيموقاطا حوالى عام ٥٨٠م، درس الخطابة والفلسفة في الإسكندرية، ثم واصل تعليمه بدراسة القانون في القسطنطينية، ووضع عدة كتابات في علم الطبيعة والدين. وقد أبدى في مؤلفه التاريخى إيمانا كبيرا بمعجزات القديسين، فأشار إلى أن حرق الأفار لضريح ورفات القديس ألكسندر عام ٥٨٨م قرب Drizipera جلب عليهم الطاعون وتسبب في إصابة سبعة من أبناء الخان بحمى أدت إلى موتهم جميعا في يوم واحد .

Theophylact Simocatta , *The History of Theophylact Simocatta* , trans. M.& M. Whitby , Oxford , 1986 , pp.199-200.

القديسين وراحا يربطان بينها وبين تفسيرهما لبعض الأحداث التاريخية، أما إيفاجريوس Evagrius فقد ذهب لأبعد من ذلك عندما راح يحاكى كتاب الهجيوجرافيا بتضمينه سير بعض القديسين داخل رواياته التاريخية[٧٩].

وفيما يتعلق بموضوع البحث ؛ تضمنت المصادر التاريخية إشارات عن مكانة العلاج المقدس في الفكر الشعبى البيزنطي، فقد كتب سوزومين عن كنيسة القديس ميخائيل St. Michael التي شيدها قسطنطين في ضاحية Sosthenium بالقسطنطينية، وكيف توافد عليها المرضى من كل صوب وحدب لتلقى العلاج المقدس، منهم مريض ثرى لجأ إلى الأطباء، بيد أن أدويتهم لم تفلح في علاجه بل زادت حالته سوءً، وعندما وجد المريض نفسه قد أصبح نصف ميت، وأن "مهارة الأطباء باتت عاجزة"، أمر خدمه بحمله إلى كنيسة القديس ميخائيل، ورقد بها حتى "تجلت له قوة مقدسة ليلا وشفي"[٨٠]. وفي هذا الصدد تبرز أهمية

كما تحدث عن معجزات القديسة يوفيميا وضريحها بكنيستها في خلقدونية، وأن الإمبراطور موريس استخف بهذه المعجزات وأرجعها إلى براعة خداع البشر، لكنه رأى بعينيه معجزة تدفق الدماء من ضريحها، فبكى قائلا :"لقد تجلت معجزات الرب في قديسيه" . Ibid , pp.233-234.

واقترح هنرى جريجوار أن ثيوفلاكت بوضعه هذه المعجزات مباشرة، وبصورة تبدو مقحمة على سياق الأحداث، قبل حديثه عن مقتل موريس بعد ثمان سنوات من هذه الحادثة المؤرخة بعام ٥٩٣م، يقدم تفسيرا إلهيا لمقتله، أنظر،

Grégoire , "Sainte Euphémie et l'empereur Maurice" , *Le Muséon* 59 (1946) , pp. 295-302.

(٧٨) كتبت الحولية الفصحية في أوائل القرن السابع الميلادي، وقد أبدى كاتبها إيمانا كبيرا بالرؤى والأحلام ومعجزات العذراء والمسيح والقديسين، أنظر:

Chronicon Paschale , pp.9 , 26-8 , 31 , 37 , 39 , 41-2 , 102-3 , 165 , 169 , 174 , 180 , 183-4 , 186 , 188.

ويشير كاتبها إلى انتقام العذراء من الآفار لحرقهم كنيستى القديسين كوزماس وداميان والقديس نيقولاس عام ٦٢٣م. Ibid , p.180.

(٧٩) ولد إيفاجريوس حوالى عام ٥٣٥م بسوريا، درس النحو والأدب والخطابة في أنطاكية خلال الفترة (٥٤٠-٥٥٠م)، ثم ارتحل إلى القسطنطينية لدراسة القانون حتى صار مدرسا للقانون، وعاد إلى أنطاكية ليعمل مستشارا قانونيا لبطريرك كنيستها جريجورى (٥٧٠-٥٩٢م).

Evagrius , *Ecclesiastical History* , pp.xiv-xiii.

وقد ضمن إيفاجريوس مؤلفه سيرا مختصرة ومعجزات للقديسين سيميون الأكبر Symeon the Elder وزوسيماس Zosimas ورفيقه يوحنا الغزاوى John the Ghozibite، وبارسانوفيوس Barsanuphius.

Ibid , pp.34-8 ; 205-7 ; 206-207 ; 273, 241.

(٨٠) Sozomen , *Ecclesiastical History* , book.ii , ch.iii.

مؤلف بروكوبيوس عن المنشآت The Buildings، الذي ربما يقدم صورة واقعية عن مدى تغلغل الإعتقاد في قدرات القديسين العلاجية في فكر المجتمع البيزنطي، وهى صورة تتشابه في كثير من جوانبها مع الفكر الهجيوجرافي بوجه عام، ففي معرض حديثه عن مجهودات جستنيان لإعادة بناء عدد من أضرحة القديسين، أشار إلى أن جستنيان أصيب بمرض خطير، حتى بدى وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، فزاره القديسان كوزماس وداميان في حلم وأنقذاه بصورة لا يدركها عقل البشر، ولذلك أعاد بناء كنيستيهما وتوسيعها وإنارتها وأضاف إليها الكثير من الملحقات التي لم تكن بها قبلا، وهنا يستطرد بروكوبيوس بقوله : "ولذلك عندما يجد الناس أنفسهم يهاجمون بأمراض تفوق قدرة الأطباء، وبعد يأسهم من أية مساعدة بشرية، يلجئون إلى الأمل الوحيد الباقى لهم، فيركبون القوارب ويسرعون إلى الكنيسة، وعند اقترابهم يرون الضريح وكأنه على الأكروبوليس"[٨١]. وفي إشارة تالية يتحدث بروكوبيوس عن معاناة جستنيان بمرض منعه من النوم وسبب له ألما شديدا، وعندما وضح له أن مرضه خارج نطاق مساعدة الأطباء، "هجر مهارة البشر" وعهد بنفسه إلى رفات الأربعين قديس راجيا الشفاء من خلال الإيمان بهم، وعندما وضع القساوسة المذخر على ركبتيه زال المرض و"طرد بواسطة أجساد الرجال التي كرست في خدمة الرب". وهنا يستطرد بروكوبيوس روايته بقوله :"ولم يسمح الرب بأن يكون شفاؤه المقدس محل شك، بل أظهر إشارة عظيمة لما حدث، ففجأة انساب الزيت من الرفات المقدسة لتغمر قدمي الإمبراطور وعباءته، ولذلك حفظت هذه العباءة في القصر، كتخليد لذكرى هذه الحادثة، ولعلاج أولئك الذين قد يعانون مستقبلا من أمراض ميئوس من شفائها"[٨٢].

ولد سوزمين على مقربة من غزة بفلسطين وعاش في النصف الأول من القرن الخامس، حوالى ٤٠٠م – ٤٥٠م، ارتحل إلى القسطنطينية ودرس القانون ثم احترف المحاماة. وقد اشتهر بمؤلفه عن تاريخ الكنيسة الذي أهداه إلى الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى، أنظر: دونالد نيكول، معجم التراجم، ص٢٤١-٢٤٢.

(٨١) Procopius , *Buildings* , p.63.

(٨٢) Procopius , *Buildings* , pp.67-69.

ذكر بروكوبيوس هذه القصة في سياق حديثه عن العثور على رفات الأربعين قديس الذين خدموا قديما في الجيش الرومانى بمدينة ميليتينى Melitene في أرمينيا. ومن الملاحظ هنا أنه أرجع سبب مرض جستنيان إلى سلوكه الشخصى بقوله :" وكان هو نفسه مسئولا عن مرضه، لأنه مارس رجيما قاسيا أثناء أيام الصوم قبل عيد الفصح، رجيم لا يناسب إمبراطور مهموم بشئون دولته، لقد ظل يومين كاملين دون طعام، وخلالهما كان يستيقظ مبكرا ويظل منهمكا في إدارة أمور الدولة حتى وقت متأخر من الليل، ورغم أنه يأوى إلى فراشه متأخرا، إلا أنه سرعان ما يستيقظ كما لو كان لا يستطيع تحمل فراشه".

ومن الملاحظ ؛ أن بروكوبيوس، وهو أحد متعلمى بيزنطة في القرن السادس، عبر في هذه الروايات عن اعتقاده في القدرات الإعجازية للقديسين، خاصة فـي مجـال العـلاج المقدس، وحاكى كتاب الهجيوجرافيا في وصف إعجازية هذا العلاج، ولعل استخدامه لما يشبه طقس "حضانة المعبد" في زيارة القديسين كوزماس ودراميان المنامية لجستنيان، واسـتخدامه لمفهوم وساطة القديسين والرفات والزيت المقدس، كلها أمور تعكـس ممارسـات وطقـوس المجتمع البيزنطي اليومية فيما يتعلق بزيارة أضرحة القديسين لأغراض العلاج المقدس، كما تعكس تأثيرا هجيوجرافيا وضح ضمنا في إشارات بروكوبيوس إلى نجاح القديسين في علاج أمراض فشل الطب التقليدي في التعامل معها، ومع ذلك قد يكون من الصعب، أو ربما مـن الخطأ، القول بأن بروكوبيوس تبنى موقف كتاب الهجيوجرافيا المعادى للطب والأطباء.

ولم يكن بروكوبيوس الوحيد من بين متعلمى عصره الذين عبروا بوضـوح عـن اعتقادهم في القدرات العلاجية للقديسين، فإيفاجريوس أيضا تحدث في تاريخه الكنـسى عـن وجود العديد من أضرحة القديسين الشهيرة في القسطنطينية، التي جذبت النـاس مـن شـتى الأنحاء، كما تحدث عن القديس سيميون العمودي St. Symeon the Stylites الذي أمضى ٦٨ عاما على عمود فوق جبل يعالج المرضى من كافة العلل والأمراض، وربما قصد التلميح ضمنا إلى فشل علاج الأطباء، عندما تحدث عن موت مريض بالنقرس لأنـه "تنـاول دواء مركبا مما يسمى *hermodactylus*، قدمه له أحد الأطباء *Asclepiades*" [٨٣].

وإشارات بروكوبيوس عن علاج جستنيان من خلال الطب المقدس ليست الوحيدة من نوعها، بل لدينا أمثلة أخرى في الكتابات الهجيوجرافية عن لجوء أباطرة وأفراد من الأسرة الإمبراطورية للعلاج على أيدى القديسين، حيث يروى كاتب سيرة القديس ثيودور السيكيونى قصة علاج الإمبراطور فوقاس من النقرس على يدى القديس عن طريق صلوات تلاها عليه، كما يروى قصة أخرى عن إصابة أحد أبناء الإمبراطور موريس بمرض عضال حيث "ظهرت قرح كثيرة في جسده، ورغم أن الأطباء جربوا أدوية كثيرة، إلا أن أدويتهم لم تجد نفعا مع الطفل، فأرسل موريس للقديس يستدعيه للحضور في قصر هيريا، فصلى القديس على الطفل وبارك بعض الماء وغسل به جسده، وبذلك شفي من مرضه".

Dawes , *St. Theodore of Sykeon* , chs. 97 , 133 ; Festugière , *Théodore de Sykeôn* , ch.97, pp.81-2 ; ch.133, pp.109-10 .

(٨٣) Evagrius , *Ecclesiastical History*, pp. 233-5 ; 315 ; 316.

من الملاحظ أن هناك عددا من أضرحة الشفاء ورد ذكرها بين ثنايا المصادر، دون أن يحظى قديسوها بكتاب كرسوا لهم مؤلفات تتضمن سيرهم ومعجزاتهم، فبالإضافة إلى ضرائح العلاج المقدس الشهيرة للقديسين كوزماس ودراميان، وأرتيميوس، يحدثنا كاتب معجزات القديس أرتيميوس عن ضرائح أخرى جذبت المرضى بشتى أنواع الأمراض، الروحية والجسدية، فيشير إلى كون كنيسة القديس بانتيليمون St.

وإذا كانت المصادر التاريخية قد عكست جانبا من المعتقدات الدينية الشعبية فيما يتعلق بالعلاج المقدس، فإن أحد أهم المصادر الطبية للعصر البيزنطي الباكر قد شخص مدى عمق وتغلغل هذه المعتقدات في العقلية الشعبية البيزنطية بصورة مثيرة للإنتباه، وهو المؤلف الطبى الذي وضعه ألكسندر الترالیسى Alexander of Tralles [٨٤]، أحد أشهر أطباء عصر جستنيان، ككتيب إرشادى للأطباء، وضمنه خلاصة تجربته وخبرته كطبيب، وفيه أعلن تأييده لاستخدام التعاويذ والرقية والأحجبة والعلاجات الشعبية، ورغم أنه لم يقدم مبررا مباشرا لموقفه، إلا أنه كان حريصا على التوصية بقصر استخدام مثل هذه الوسائل على الحالات الميئوس من علاجها، وحينما يفشل المنهج العلمي في التعامل معها، وفي مواضع تالية راح يدافع عن استخدامها في ظروف أخرى، خاصة إذا ما بدت الأسلوب الوحيد لملائمة حاجات ورغبات مرضاه. ونستطيع لمس جوهر تفكيره من فقرة وردت في نهاية توصيته عن مرض القولون : "أعرف أن أي شخص يستخدم الأساليب المذكورة توا لن يحتاج إلى مساعدة أخرى من الخارج، ومع ذلك، لأن كثيرا من المرضى، خاصة الأثرياء، يرفضون تناول الدواء ومعالجة أمعائهم بالسوائل، فإنهم يضطروننا إلى علاج الألم بالتعاويذ السحرية، وذلك هو سبب اعتقادي بأنه أمر جدير بالاهتمام الحديث عن هذه العلاجات، سواء تلك التي خبرتها بالتجربة والخبرة، أو تلك التي ثبتت فعاليتها على يد أصدقاء وزملاء موثوق فيهم"[٨٥].

Panteleemon ملجأ شعبيا لأولئك الذين تملكتهم الأرواح الشريرة، بينما كنائس أخرى، مثل كنيسة العذراء Theotokos جذبت الذين يعانون من مختلف الأمراض الجسدية .

Crisafulli , *St. Artemios* , mir.18 , pp.115-21; mir.12 , pp. 99-101.

(٨٤) ولد ألكسندر الترالیسى في ترالیس Tralles عام ٥٢٥م في إحدى عائلات آسيا الصغرى البارزة، وتوفي بروما عام ٦٠٥م، ووفقا لأجاثياس كان الكسندر أحد خمسة أشقاء بارزين لطبيب يدعى ستيفن، أكثرهم شهرة هو أنثيميوس Anthemios المهندس المعمارى الشهير الذي شيد كنيسة آيا صوفيا .

Agathias , *The Histories* , trans. J.D.Frendo , New York, 1975, p.141; Scarborough, J., "Alexander of Tralles", *The Oxford Dictionary of Byzantium*, I , Oxford, 1991, p. 58.

(٨٥) Duffy , J., "Byzantine Medicine in the Sixth and Seventh Centuries: Aspects of Teaching and Practice", *Dumbarton Oaks Papers* 38(1984), pp.21-27 , esp. 26.

وقد علق دوفي على رأى ألكسندر الترالیسى بقوله :"حتى بدون اقتراح ما قد يقصده ألكسندر من تأثير للعامل النفسي في مقاربته، فإن صدقه وصراحته ربما تستحقان الإعجاب، إذ كان لديه من الشجاعة ليربط بين المريض ومثل هذه الممارسات في ظل مخاطرة تعرضه للسخرية أو فقدان احترام المثقفين . هذا بالإضافة إلى أن الباحث في حقائق الحياة البيزنطية في القرن السادس لديه من الأسباب ما يجعله مدانا له، لأنه كشف الكثير عن مكانة السحر و المعتقدات الخرافية عند جانب من المجتمع البيزنطي بصورة لم نكن لنتوقعها". وفي هذا السياق يقدم لنا مؤرخ القرن الرابع أميانوس ماركيللينوس معلومة هامة عن مكانة السحر

ورغم أن ألكسندر الترالبسى لم يشر إلى العلاج المقدس كأحد أنواع الطب البـديل التي أيد استخدامها، إلا أن موقفه هذا ذو دلالة بالغة على مدى عمق وتغلغل البدائل الطبيـة الشعبية، بما فيها العلاج المقدس، في الفكر المجتمعى البيزنطي، والأكثر دلالة أنـه إذا كـان المنطق أكثر ميلا لربط مثل هذه الظواهر بالطبقات الدنيا، لعوامل الفقر والأمية، فإن ألكسندر هنا يحذرنا من الاستخفاف بدور المعتقدات الشعبية بين أفراد الطبقة العليا، التي ينتمي إليهـا ألكسندر ومرضاه، وهو الأمر الذي قد يضفي بدوره مزيدا من المصداقية والتناغم مع ما ذكر قبلا عن موقف أكثر أفراد هذه الطبقة من الطب المقدس[٨٦].

في الممارسات الطبية وقتذاك، إذ يشير إلى الطبيب مارسيللوس Marcellus، المعاصر للإمبراطور قسطنطيوس، والذي استخدم " تعويذة الساحرات القدامى للتخليص من الألم، وهى الممارسة التي يسمح بها حتى من قبل الطب ذاته" . Ammianus Marcellinus , *Later Roman Empire* , pp.96-7.

(٨٦) عكست الكتابات الهجيوجرافية إقبالا من شتى فئات المجتمع البيزنطي على أضرحة الشفاء، وبنظرة متفحصة لبعض هذه الكتابات نلاحظ أن الطبقة الأرستقراطية سجلت نسبة معقولة مقارنة بالطبقات الأخرى المترددة على هذه الأضرحة، وهنا تأتى الأهمية الكبيرة لمعجزات القديس أرتيميوس، خاصة أن كاتبها كان حريصا على تسجيل معلومات وافية عن هوية المرضى بعكس الغالبية العظمى من كتاب الهجيوجرافيا، وعلى ذلك نجد من بين زبائن القديس أرتيميوس : السناتور والقاضى البطريق سرجيوس Sergius the Patrikios ؛ وستيفن الشماس شاعر حزب الزرق، وجورجيوس مالك سفينة ؛ وبعض من موظفي الادارة كالخارتولاريوس جورجيوس ؛ وتجار وحرفيين مثل: أكاكيوس صائغ الفضة، يوبوروس التاجر، وجورجيوس صانع البراميل، إزيدور الملاح، وميناس العامل في شحن السفن، ونارسيس الخادم، وسيرجيوس حارس مخزن قمح، وثيوتيكنوس صانع السفن، وزونتوس دابغ الجلود، وممثل وصانع سهام ومشرفة على أحد الحمامات العامة ؛ وعدد من رجال الدين: كبطرس السينكيللوس، وأندروس الشماس وستيفن الشماس، وبعض صغار القساوسة . أنظر القائمة التي وضعها نيسبيس عن زبائن القديس أرتيميوس: Nesbitt , *Introduction* , pp. 19-21 ; Kazhdan , A. P. & Sherry , L. F., "Anonymous Miracles of St. Artemios" , *AETOΣ : Studies in Honour of Cyril Mango* , ed. I. Ševčenko & I. Hutter , Stuttgart & Leipzig , 1998 , pp. 200-209, esp. pp. 200-1.
وفي سيرة القديس ثيودور السيكيونى، كان معظم مرضاه من الطبقة الأرستقراطية، حيث يذكر كاتبها أن القديس إلى جانب علاجه لأحد أبناء الإمبراطور موريس من قرح كثيرة ظهرت في جسده، وعلاجه للإمبراطور فوقاس من النقرس، عالج أفراد من الطبقة الأرستقراطية والسناتورية، كسيدات ينتمين لهذه الطبقة، منهن زوجة البطريق دومنيتزيولوس Domnitziolus، وأحد قادة الحرس الإمبراطورى، وأحد أفراد السكرتارية الإمبراطورية يدعى فوقاس ؛ هذا إلى جانب علاجه لمرضى ينتمون إلى الفئات والطبقات الأخرى : بحاران، وابن تاجر، ومصارع، وحارس بوابة دير القديس، وخادمتان لإحدى العائلات الأرستقراطية.
Dawes , *St. Theodore of Sykeon* , chs. 84-92 , 97, 110 , 121 , 123 , 133 , 140 ; Festugière , *Théodore de Sykeôn* chs. 84-92, pp. 73-79 ; ch. 97, pp. 81-2 ; ch. 110 ,

وفي هذا السياق ؛ يبدو أن ألكسندر الترالیسی لم يكن الطبيب الوحيد الذي أدرك مكانة الطب البديل في المعتقدات الشعبية البيزنطية [٨٧]، إذ تقدم الكتابات الهجيوجرافية حالات أخرى لأطباء نصحوا مرضاهم باللجوء إلى أضرحة القديسين، فكاتب معجزات القديسين كوزماس وداميان يروى قصة طبيب دفعه احترامه للقديسين إلى رفضه مواصلة علاج مصاب بكسر في إحدى قدميه [٨٨]، وطبيب آخر نصح مريضا يعانى من خراج بأسنانه بتجربة العلاج المقدس [٨٩]، وفي حالة ثالثة نصح طبيب مريضا باللجوء إلى القديسين كوزماس وداميان مبررا ذلك بأن المرض "يكمن في الروح أكثر من البدن" [٩٠]. والأكثر من ذلك طور كتاب الهجيوجرافيا موقف الأطباء من العلاج المقدس من مجرد نوع من الإدراك والتفهم لحاجات مرضاهم، إلى اعتقاد الأطباء أنفسهم في قدرات هذا العلاج على التعامل مع الأمراض التي تعجز حرفتهم عن التعاطى معها، ولنتذكر هنا قصة البطريرك صفرونيوس عن الطبيب جيزيوس[٩١]، ولنقرأ أيضا قصة كاتب معجزات القديس أرتيميوس عن أنثيموس Anthimos، أحد كبار أطباء القسطنطينية، الذي لجأ إلى ضريح القديس ليعالج ابنه المصاب بالفتاق الإربى[٩٢].

ومع ذلك ؛ قد يكون من الخطأ إصدار حكم مطلق بأن المجتمع البيزنطي بأكمله قد اعتقد في القدرات العلاجية للقديسين، فلكل قاعدة استثناء، وإذا كان كثيرون من مثقفي العصر قد تأثروا بالمعتقدات الشعبية، كالسحر والعرافة والنبوءة والرؤى والقدرات الإعجازية للقديسين، كما أظهرت كتابات أميانوس ماركيللينوس وبروكوبيوس وإيفاجريوس وثيوفلاكت سيموقاطا، فلا يعنى هذا أنه لم يوجد بين فئة المثقفين والمتعلمين من رفض وعارض، أو على الأقل اتخذ موقفا متحفظا تجاه كثير من هذه المعتقدات، مثل ميناندر الذي لا نلمح في

---

pp. 90-1 ; ch.121 , pp. 101-2 ; ch. 123 , p. 103 ; ch. 133, pp.109-10 ; ch. 140 , pp. 114-15.

(٨٧) في القرن الخامس أتهم رجل دين يدعى صفرونيوس بالسحر والتنجيم، والأهم أنه أتهم بإفساد طبيب يدعى بطرس بعد أن قرأ كتاباته عن التنجيم . Nutton , *Gallen to Alexander* , p. 8.

(٨٨) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.27.

(٨٩) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.32.

(٩٠) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,*mir.21.*

(٩١) أنظر حاشية (٣٩) ؛ وراجع كذلك رواية سوزومين عن الطبيب بروبيانوس Probianus حاشية (٤٠).

(٩٢) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.1 , pp.79.

ومن الملاحظ أن كاتب السيرة لم يشر إلى أن مرض ابن أنثيموس كان مينوسا من شفائه، أو أنه حاول قبل اللجوء إلى ضريح القديس تجربة العلاج الطبى.

مؤلفه التاريخى أية إشارة من قريب أو بعيد عن تأثره بها [٩٣]، وفي هذا السياق ربما يمكن اعتبار أجاثياس Agathias أحد الممثلين البارزين لفئة المثقفين الرافضين لهذه المعتقدات، خاصة وأنه وجه في مؤلفه التاريخى انتقادا حادا لواقع المعتقدات الشعبية في قسطنطينية القرن السادس[٩٤].

وعلى ذات النسق ؛ من الطبيعى أن يكون بين أفراد المجتمع من رفض وعارض، أو على الأقل اتخذ موقفا سلبيا تجاه الاعتقاد في العلاج المقدس، لسبب قد يبدو بسيطا، وهو أنه لو كان كل البيزنطيون قد أمنوا بالقدرات الإعجازية للقديسين، لما كانت هناك حاجة أو ضرورة لأن يشن عدد من كتاب الهجيوجرافيا هجومهم العنيف على الطب التقليدي ومحترفيه، بل ربما كان هذا الهجوم في حد ذاته هجوما دفاعيا، أو ربما وقائيا، يشير إلى وجود فئة من المجتمع عارضت الاعتقاد في هذه القدرات. وهو الأمر الذي عبر عنه بوضوح أندروس الكريتى Andros of Crete، كاتب معجزات القديس ثيرابون St. Therapon في بداية القرن الثامن الميلادي، عندما شن هجوما عنيفا على أولئك الذين يرفضون الاعتراف بفعالية معجزات القديسين، ووصفهم بالملعونين والوثنيين، وراح يؤكد على أن هناك علاقة

---

(٩٣) Menander , *The History of Menander the Guardsman* , trans. R. C. Blockley , Liverpool , 1985.

(٩٤) يستطيع المطالع لمؤلف أجاثياس التاريخى أن يستشف موقفه بوضوح من خلال تعليقه على حال المعتقدات الشعبية بقوله :" أصبحت القصص الخرافية والتنبؤات الإعجازية بأن نهاية العالم باتت وشيكة منتشرة ومتداولة بين الناس، وراح الدجالون والمشعوذون يطوفون الشوارع ويتنبئون بما يخطر على بالهم مشيعون مناخ من الفزع الشديد بين الغالبية العظمى من الناس. والأكثر شؤما تكهنات أولئك الذين ادعوا أنهم ملهمون بنوبة من النبوة وبقوى خارقة للطبيعة، زاعمين أنهم يطلعون على المستقبل من خلال قرنائهم من الأرواح. والأكثر سوءً أن كثيرين من شعب القسطنطينية راحوا يتأملون حركات وأشكال الأجرام والنجوم ويلجئون إلى المنجمين ليحسبوا لهم كم تبقى من الزمن على نهاية العالم. في الواقع كان المجتمع يسمو بمثل هذه النوعية من الأشخاص، خاصة وقت المحن والأزمات، رغم أنها تستحق المقاضاة بتهمة الإفساد والفسوق".

Agathias , *Histories* , p. 140 ; Cameron , A., *Agathias* , Oxford , 1970 , p. 91.

ولد أجاثياس في أسرة ثرية حوالى عام ٥٣٢م، درس الفلسفة والخطابة في الإسكندرية، وعاد إلى القسطنطينية عام ٥٥١م لمواصلة تعليمه بدراسة القانون، وسرعان ما أصبح أحد أبرز محامى القسطنطينية في وقته، لمزيد من التفاصيل عن حياة أجاثياس وثقافته، أنظر

Agathias , *The Histories* , pp.viii-xi , 3-8 ; Cameron , *Agathias* , pp. 1-11.

وثيقة بين مرض الجسد ومرض الروح، وأن الأول هو نتيجة حتمية للثانى، وظلت كل تفسيراته لأمراض الجسد والروح تدور حول محور العقاب الإلهى[٩٥].

ورغم أن كتاب الهجيوجرافيا أرادوا من خلال صورتهم المقارنة بين العلاج المقدس ونظيره التقليدي، إظهار تأييد شعبى جارف لقدرات القديسين الإعجازية في مجال العلاج، إلا أنه داخل هذه الصورة يستطيع المدقق فيها أن يلمح إشارات، صريحة أو ضمنية، إلى وجود فئة من المجتمع اشتبهت في قدرة القديسين الاعجازية على العلاج وظلت تؤمن بقدرة وكفاءة الطب التقليدي، فكاتب معجزات القديس أرتيميوس أشار إلى مصاب بالفتاق شكك في قدرات القديس على علاج مرضه[٩٦]، كما أشار مرارا إلى أولئك الذين كانوا ينصحون المرضى بالذهاب إلى المستشفيات والاستعانة بالأطباء والجراحين[٩٧]، ووصفهم بـــ "ذلك الصنف من الناس الذين لا يهتمون إلا بشئون العقل"[٩٨]، والأكثر دلالة أن نصيحة هؤلاء للمرضى باللجوء إلى الطب التقليدي كانت تأتى في أغلب الأحيان بعد لجوء الآخرين بالفعل إلى ضريح القديس، أى أثناء وجودهم بكنيسة القديس يوحنا برودروموس[٩٩]، ومع أن كاتب المعجزات يقرن ذلك بتأخر عملية العلاج المقدس[١٠٠]، إلا أن نصيحة من هذا النوع عند ضريح القديس وداخل الكنيسة قد توحى ضمنا بأن رأى الفئة المعارض للاعتقاد في علاج القديسين قد بلغ مناطق نفوذ هذا العلاج، وهو ما يمكن تفسيره أيضا بوجود نوع من الدعاية المضادة لتلك الخاصة بفئة المؤيدين للعلاج المقدس، خاصة كتاب الهجيوجرافيا.

---

(٩٥) Haldon, J., "Supplementary Essay, The Miracles of St. Artemios and Contemporary Attitudes : Context and Significance" , *The Miracles of St. Artemios : A Collection of Miracle Stories by an Anonymous Author of Seventh-Century Byzantium* , trans. V.S. Crisafulli, Leiden – New York – Köln , 1997, pp. 34-73 , esp. p. 49.

(٩٦) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.15 , pp. 103-7.

(٩٧) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.3 , pp.81-3.

(٩٨) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.25 , pp.145-7.

(٩٩) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.3 , pp.81-3 ; mir.25 , pp.145-7.

(١٠٠) في هذا السياق، ألمح كاتب معجزات القديسين كوزماس وداميان ضمنا إلى أن تأخر العلاج المقدس أثناء تواجد المرضى عند ضريح القديسين كان يثير لديهم الشكوك في قدرة القديسين العلاجية، وفي هذه الحالة كان الملاذ التقليدي للمرضى هو الطب التقليدي، كقصة مريض مسن بالاستسقاء أمضى عدة أيام عند ضريح القديسين أملا في رؤيا اعجازية دون جدوى، وعندما يأس راح يهذى بكلمات مسيئة لهما.
Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.1.
وفي قصة أخرى، أمضى مريض بخراج معوى بعض الوقت في كنيسة القديسين إنتظارا لرؤيا إعجازية، وعندما نفذ صبره استدعى أطبائه الخصوصيين، وتم إجراء جراحة له داخل الكنيسة .
Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.5.

ومن ناحية أخرى ؛ إذا كانت الغالبية التي اعتقدت في القدرة العلاجية للقديسين قد ضمت كثيرين من أفراد الطبقة المثقفة، بما فيهم بعض من الأطباء أنفسهم، كما عكست المصادر التاريخية والهجيوجرافية للعصر الباكر، فقد كان من المتوقع أن يشكل أفراد من هذه الطبقة، خاصة الأطباء، أكثرية الفئة المعارضة، فإلى جانب قصة البطريرك صفرونيوس عن الطبيب جيزيوس الذي وجه سخرية لاذعة تجاه الإعتقاد في العلاج المقدس[١٠١]، يروى كاتب معجزات القديسين كوزماس ودراميان قصة أخرى عن أطباء سخروا من مريضة بورم الثدى عندما رفضت الجراحة وفضلت اللجوء إلى ضريح القديسين، بقولهم: "إذهبى وستعودين ثانية، لكن بعد أن يزداد مرضك سوءً"[١٠٢].

ومن المثير للدهشة ؛ أنه إذا كان طبيعى أن يوجد بين الأطباء من عارض العلاج المقدس، فقد عكست لنا الكتابات الهجيوجرافية المعادية للطب التقليدي ومحترفيه، ربما بصروة غير مقصودة، وجود طائفة من رجال الدين ممن شكوا في قدرات القديسين العلاجية وظلوا يثقون في قدرات الطب التقليدي وكفاءة محترفيه، فكاتب معجزات القديس أرتيميوس، رغم أنه كان أكثر كتاب سير القديسين قسوة في هجومه على الطب والأطباء، إلا أنه لم يستطع أن ينكر، أو ربما يخفي، تشكك بطرس السينكيللوس بكنيسة العذراء بالقسطنطينية في قدرة القديس على العلاج [١٠٣]، واستعانة بعض رجال الدين الآخرين بالأطباء قبل لجوئهم إلى ضريح القديس بعد أن يثبت لهم فشل الأولين، كقصة ستيفن شماس كنيسة آيا صوفيا الذي استجاب لنصيحة والديه باللجوء إلى جراحى مستشفى سامسون بالقسطنطينية والخضوع لجراحة للعلاج من الفتاق الإربى[١٠٤]، وقصة أحد رجال الدين البارزين في السلك البطريركى الذي اصطحب مريضا بالاستسقاء إلى مستشفى خريستودوتيس Christodotes بالقسطنطينية وأوصى كبار الأطباء ومعاونيهم برعايته[١٠٥]. بل والأكثر دلالة أن كاتب المعجزات يروى لنا قصة رجل دين بكنيسة القديس يوحنا برودروموس، أصيب بالفتاق الإربى، وبدلا من أن يلجأ إلى القديس استعان بالأطباء، رغم أن الأول هو الأكثر قربا، والأهم من ذلك الأكثر مصداقية وثقة في أعين رجل دين بنفس الكنيسة التي يقبع فيها ضريح القديس أرتيميوس، ومن المفترض أنه يرى يوميا حالات كثيرة لمرضى يعالجون على يدى القديس، خاصة وأنه

---

(١٠١) أنظر حاشية (٣٩)، (٤٠).

(١٠٢) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.28.

(١٠٣) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.37 , pp.193-7.

(١٠٤) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.21 , pp.125-7.

(١٠٥) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.22 , pp.131-7.

تخصص، من بين مختلف أنواع الأمراض، في علاج هذا المرض على وجه الخصوص[١٠٦]. وفي معجزات القديسين كيروس ويوحنا، يروى كاتبها قصة مصاب بروح شريرة جرح حنجرته بسكين في كنيسة القديسين، فهرع رجال الدين وخدام الكنيسة على الفور إلى القرى المجاورة للبحث عن طبيب ليخيط الجرح [١٠٧]. وفي معجزات القديسين كوزماس وداميان أرسل دير أحد رهبانه ليعالج من مرضه "وفقا لحرفة أبقراط وجالينوس"[١٠٨].

ومن الملاحظ ؛ أن كتاب سير القديسين قدموا الحالات السابقة في سياق حملتهم الدعائية للتأكيد على المقارنة بين فعالية العلاج المقدس في مواجهة فشل وقصور الطب التقليدي، فجميع رجال الدين الذين استعانوا بالأطباء، كنظرائهم من العلمانيين، لجئوا إلى العلاج المقدس بعد أن ثبت لهم عجز وقصور الطب التقليدي، ورغم أن هذه المقارنة ربما كانت هدفهم الحقيقى، إلا أنهم قدموا من خلالها تضمينا مهما، وهو أنه كان من العادى والمألوف بالنسبة للمرضى، حتى لرجال الدين منهم، الاستعانة بالأطباء قبل اللجوء إلى القديسين، وفي ضوء ذلك يمكن تفسير موقف كتاب الهجيوجرافيا العدائى ورسائلهم التحذيرية ضد الطب ومحترفيه. ورغم أن كتاب الهجيوجرافيا حاولوا تفسير هذا التصرف من قبل رجال الدين في ضوء تملك الأرواح الشريرة أو السقطات الايمانية التي تستحق العقاب والتكفير، إما بتجربة الألم والمعاناة على أيدى الأطباء والجراحين، أو بعقاب على أيدى القديسين أنفسهم[١٠٩]، إلا أن مضامينه ذات أهمية بالغة لفهم الدوافع التي جعلت كتاب

---

(١٠٦) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.23 , pp.137-41.

(١٠٧) Festugière , *saints Cyr et Jean* ,mir.67.

(١٠٨) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.48.

(١٠٩) ففي حالة ستيفن الشماس تعرض لألم ومعاناة شديدة على أيدى الجراحين دون أن تتحسن حالته، وعندما لجأ إلى القديس أرتيميوس وشفي، راح يبكى أمام ضريحه قائلا :" أيها القديس، باسم الرب الذي منحنى نعمة الشفاء لن يلمسنى طبيب على وجه الأرض مرة ثانية" . وفي حالة رجل الدين بكنيسة يوحنا برودروموس، فسر كاتب المعجزات عدم لجوئه منذ البداية إلى ضريح القديس أرتيميوس بأن :"روحا شريرة أصابته في ذاكرته فلم يتذكر شيئا عن القديس ارتيميوس القابع في ضريحه بذات الكنيسة، أو عن أولئك الذين عانوا من نفس المرض وشفوا عند ضريحه، فعهد بنفسه إلى الأطباء، ورغم أنه جرب الكثير من العلاجات إلا أن مرضه ازداد سوءً"، وبالإضافة إلى ذلك تعرض لعقاب مادى تمثل في إنفاقه مال على الأطباء دون نفع، وذكر عن لسانه وهو يخاطب الطبيب "لن أدعك تعالجنى بعد اليوم، لقد أعطيتك سميزيس *semissis* وتريميسيس *tremissis* وأربع قيراطيا *keratia*، ولم أنتفع منك بأى وجه، بل على العكس لأنك فشلت مع مرضى مرارا، مرّت علىّ أيام سيئة وزاد مرضى سوءً، فلتغادر منزلى الآن" . وفي معجزات القديسين كيروس ويوحنا تعرض الأيكونوموس (المدير المالى) خريستودوروس Christodoros الذي أحضر الطبيب إلى الكنوسة للعقاب على أيدى القديسين نفسهما، حيث راحا يجلدانه بالسياط ويعنفانه.

الهجيوجرافيا يتخذون موقفهم العدائى من الطب والأطباء، وهى الدوافع التـــي عبـــر عنهـــا صراحة كاتب معجزات القديس أرتيميوس في حوار راح فيه القديس أرتيميوس يوبخ رجـــل الدين في كنيسة القديس يوحنا برودروموس على لجوئه إلى الأطباء، سائلا إياه :"لماذا يذهب الرجل المريض إلى الطبيب بدلا من أن يأتى إلىَّ ؟" [١١٠]، وعبر عنها أيضا كاتب معجـــزات القديسين كيروس ويوحنا عندما صورهما يحملان السياط لجلد رجل الـــدين الـــذي أحـــضر الطبيب إلى كنيستهما، وهما يعنفانه بقولهما : "ألا تعرف أن كنيستنا قد غدت مستشفى للعالم؟ ألا تعرف أن المسيح قد اختارنا طبيبين للمؤمنين، كيف جرؤت على أن تحضر طبيبـــا إلـــى كنيستنا؟" [١١١]

هكذا ؛ يمكن القول بأن كتاب سير القديسين وجهوا حملتهم الدعائيـــة ضـــد الطـــب التقليدي ومحترفيه، لكسب، أو ربما أيضا الحفاظ، على التأييد الشعبى لوظيفة العلاج المقدس عند القديسين البيزنطيين، ويبدو أنهم لم يستهدفوا فقط الغالبية العظمى التي اعتقدت بالفعل في قدرات هذه الوظيفة الاعجازية، بل ربما تضمن برنامجهم هدف استقطاب فئة من المجتمـــع تأثرت بدعاية أخرى مضادة رفضت الإعتراف بفعالية هذه الوظيفة كبديل للطـــب التقليـــدي، ومن هنا كان هجومهم العنيف الذي حملت صيغه مضامين بالغة الدلالة، ربما كـــشف عـــن بعضها في الصفحات السابقة. ويبدو أن هذا الهدف دفعهم أيضا، رغـــم معارضـــتهم للطـــب التقليدي وهجومهم الشديد عليه، إلى محاولة مخاطبة الفئة المتأثرة بالآراء المعارضة، بتقـــديم القديس البيزنطي، ليس فقط في صورة المعالج الروحى، بل أيضا في صورة الطبيب، وهـــو الأمر الذي يظهر واضحا في العبارة التي ذكرها كاتب معجزات القديسين كيـــروس ويوحنـــا على لسانيهما : " ألا تعرف أن كنيستنا قد غدت مستشفى للعالم؟ ألا تعرف أن المـــسيح قـــد اختارنا طبيبين للمؤمنين؟". وربما مما له دلالة أن القديسين كوزمـــاس وداميـــان وكيـــروس كانوا في حياتهم أطباء، تخرجوا من مدرسة الطب بالإسكندرية، ومارســـوا مهنـــة الطـــب التقليدية. [١١٢]

Crisafulli , *St. Artemios* , mir.21 , pp.125-7 , mir.23 , pp.137-41 ; Festugière , *saints Cyr et Jean* ,mir.67.

(١١٠) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.23 , pp.137-41

(١١١) Festugière , *saints Cyr et Jean* ,mir.67.

(١١٢) اشتهرت مدينة الإسكندرية بممارسة الطب منذ عصر البطالمة، وعبر هذه القرون الطويلة حظيت مدرستها الطبية بشهرة واسعة وإقبال متزايد من الطلاب الراغبين في دراسة الطب من كافة أرجاء عالم البحر المتوسط، وكانت بالنسبة للبيزنطيين تضارع مدرسة القسطنطينية لدراسة القانون، فكتب عنها مؤرخ

وفي المقابل ، يبدو أن كاتب معجزات القديس أرتيميوس قد وجد صعوبة ما في التوفيق بين حقيقة أن قديسه لم يكن طبيبا في حياته عكس أكثر القديسين المعالجين، وبين مهمته في التأثير على المجتمع واستقطاب الفئة المعارضة، وفي ضوء ذلك يمكننا تفسير موقفه شديد التطرف في الهجوم على الطب التقليدي ومحترفيه، كما يمكننا تفسير أسباب حرصه الواضح على استخدام مفهوم الوساطة كسلاح أساسى في هذا الهجوم، وهو الأمر الذي كشف عنه بقوله :" لم يكن أرتيميوس طبيبا أو ابن طبيب، بل لربما ارتعد إذا رأى مشرط الطبيب، لكنه مع ذلك تلقى هبة الشفاء من المسيح، فغدا شافيا ومعالجا للعالم"[١١٣]، كما كشف عنه بوضوح في تعليقه على إحدى الحالات التي أظهرت عجز الأطباء وتفوق القديس بقوله : "إن تلك محصلة خطة مقدسة لإثبات أن الأطباء عديمى القدرة، ولإثارة الإعجاب والذهول تجاه مقدرة القديس"[١١٤]، وفي ضوء ذلك أيضا يمكننا تفسير حرص الكاتب على تصوير قديسه في هيئة الطبيب المتخصص في علاج الأمراض العضوية، خاصة الأمراض التناسلية والفتاق والفتاق الإربى، وهى أمراض عضوية بحتة. والمثير للإنتباه هنا أنه رغم تركه مسببات المرض في الغالب دون تفسير أو مناقشة، إلا أنه في الحالات القليلة التي أشار إلى المسببات، نادرا ما أرجعها إلى الأرواح الشريرة [١١٥]، بل أرجع معظمها إلى التدخل

القرن الرابع أميانوس ماركيلينوس : "كان قول الطبيب أنه تلقى تعليمه في الإسكندرية بمثابة تزكية كافية ومقنعة بمهارته ". Ammianus Marcellinus , *Later Roman Empire* , p.253.

وعن مدرسة الإسكندرية الطبية في العصر البيزنطي الباكر، أنظر:

Duffy, *Byzantine Medicine*, pp. 21-24.

(١١٣) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.24 , pp.141-5.

ذات الصيغة تكررت في معجزات أخرى، ففي اختتامه لإحدى هذه المعجزات ذكر عن لسان شخص يدعى Theognios قوله :"نحن نبتهل إلى المسيح الذي منح القديس واختصه بموهبة الشفاء الربانية".

Crisafulli, *St. Artemios* , mir.33 , pp.175-7.

(١١٤) Crisafulli , *St. Artemios* , mir.20 , pp.123-5.

يرى جون هالدون أن كاتب المعجزات كان لابد وأن يقدم قديسه كوسيط، وأن العلاج يتم بواسطة المسيح وليس بواسطة القديس، حتى لا توجه الاتهامات بالوثنية والهرطقة ضد مؤيديه ومريديه إذا ما أدعوا بأنه يعمل من خلال قوته الخاصة وليس من خلال قوة المسيح، ومع تسليم الباحث بوجاهة هذا الرأى، وأنه ربما يشكل جانبا أساسيا في تفسير أهداف الكاتب، إلا أن هدف الكاتب الرئيسى كما يبدو ليس فقط درء آية شبهة للوثنية والهرطقة، بل هو في المقام الأول تحقيق نوع من التأثير على فئات المجتمع المختلفة، خاصة تلك الفئة المعارضة لقدرات القديس الإعجازية . Haldon , *Supplementary Essay* , p. 48.

وثنية، أرجع الكاتب في معجزتين فقط سبب المرض إلى الأرواح الشريرة، أنظر:

Crisafulli , *St. Artemios*, mir.6 , pp.87-91 ; mir.10 , pp. 95-7.

الإلهى سواء للعقاب أو لاختبار الإيمان [١١٦]، وقدم أحيانا أسبابا فسيولوجية كحالة الشاب الذي أصيب بالفتاق نتيجة محاولته رفع وزن ثقيل [١١٧]. ونجده من ناحيـــة أخـــرى رغـــم موقفـــه المعادي من الأطباء، يقدم القديس أرتيميوس في صورة الطبيب الخبير بشئون ومناهج حرفة الطب التقليدية، ووصفه وهو يعالج المرضى بقوله : "إعتاد القديس أن يعمل كما لو كان طبيبا كبيرا مسئولا عن مستشفى، يقترب منه المرء لتلقى العلاج، بينما يظـــل أخـــرون منتظـــرين العلاج"[١١٨]، وأظهره في هيئة أحد كبار الأطباء الذي يقدم النصائح والإرشـــادات "الطبيـــة" للأطباء [١١٩]، والأكثر دلالة أنه جعل هيئة الطبيب هى المفضلة لدى القديس عنـــد ظهـــوره متخفيا لمرضاه[١٢٠]، وهو الأمر الذي يدعو إلى التساؤل : إذا كان كاتب معجـــزات القـــديس أرتيميوس قد تبنى موقفا معاديا من الأطباء، بلغ حد السخرية والتهكم والمبالغة في وصـــف فشلهم وقصور حرفتهم بهدف إظهار تفوق وإعجازية قدرات القديس العلاجية، فما الذي دعاه إلى تشبيه القديس بهم ؟ ألا يبدو ذلك تناقضا في مواقفه؟

وفي هذا السياق ؛ يمكن القول بأنه إذا كان كتاب معجـــزات القديـــسين كوزمـــاس وداميان ويوحنا وكيروس وأرتيميوس قد مثلوا الاتجاه المعادى، أو المتطرف إذا جاز التعبير، من الأطباء والطب التقليدي، إلا أنه قد يكون من الخطأ إصدار حكم مطلق بأن كافة رجـــال الدين، بما فيهم كتاب الهجيوجرافيا، قد تبنوا ذات الاتجاه، فهنا أيضا يمكن تكرار القول بـــأن لكل قاعدة استثناء، وربما كان موقف الفئة المعادية للطب التقليدي هو الاستثناء، وكما رأينـــا في كتابات هذه الفئة ذاتها تضمينات بأنه كان من العادى بالنسبة لرجال الدين اللجـــوء إلـــى الأطباء قبل اللجوء إلى أضرحة القديسين، نصادف في كتابات أخرى ما يمكن أن يطلق عليه

---

(١١٦) أرجع الكاتب سبب المرض إلى العقاب الإلهى في ست معجزات فقط، سواء أكان هذا العقاب بسبب آثام وخطايا المريض، أو بسبب التهكم والسخرية، أو حتى لمجرد عدم رسوخ الإيمان المطلق بقوى القديس الإعجازية على الشفاء، أنظر:

Crisafulli , *St. Artemios,* mir.5, pp.85-7 ; mir.7 , pp.91-3 ; mir.8 , p.93 ; mir.15 , pp.103-7 ; mir.17 , pp.109-115 ; mir.35 , pp.185-9.

(١١٧) Crisafulli , *St. Artemios,* mir.6 , pp.87-9.

(١١٨) Crisafulli , *St. Artemios*, mir.6, pp.87-9.

(١١٩) Crisafulli , *St. Artemios*, mir.22 , pp.131-7.

(١٢٠) ظهر القديس ارتيميوس متخفيا لمرضاه في منامهم في ١٩ معجزة، مرتين في هيئة أحد نبلاء القصر الإمبراطورى، وكموظف إدارى، وجزار، وقبطان سفينة، وعضو مجلس السناتو، وأشخاص عاديين، وتخفي في هيئة الطبيب في ٩ معجزات، أنظر

Crisafulli , *St. Artemios* , pp.xiii-xv ; mir.1 , p. 79 ; mir.2 , pp.79-81 ; mir.6 , pp.87-9 ; mir.22 , pp.131-7 ; mir.23, pp.137-141 ; mir.39, pp.201-5 ; mir.40, pp.205-11 ; mir.42 , pp.217-19 ; mir.44, pp.219-23.

الموقف الدينى المعتدل، الذي رغم دعايته للعلاج المقدس وحرصه على إظهار إعجازه وقوته في مواجهة الطب التقليدي، إلا أنه لم يهاجمه بعنف وقسوة الفريق المعادي، فالقديس الراهب ديادوخوس الفوتيكى St. Diadochus of Photike، في مؤلفه "عن المعرفة الروحية On Spiritual Knowledge" حوالى عام ٤٨٠م، أوضح وجهة نظر متوازنة حيال الأمر بقوله: "ليس هناك حائل يمنع المسيحى من اللجوء إلى الطبيب عند مرضه، ولكن في ذات الوقت لا ينبغى أن يوضع الأمل في الشفاء على الأطباء بل على المسيح المخلص الحقيقى"[١٢١]. وفي القرن السابع عبر كاتب سيرة القديس ثيودور السيكيونى عن أكثر مواقف كتاب الهجيوجرافيا اعتدالا عندما صور العلاقة بين القديس والأطباء في شكل يختلف تماما عن معاصره كاتب معجزات القديس أرتيميوس، فيقول : "كان القديس يرسل الماء والزيت المبارك منه إلى المرضى الراقدين في منازلهم، ويشفي من خلال صلواته الجرحى أو المصابين بأى مرض، لكن إذا استدعت حالة المريض علاجا طبيا أو جراحة أو أدوية أو الذهاب إلى الينابيع الحارة، كان يصف أفضل طرق العلاج لكل حالة، وحتى في الأمور العلمية الفنية كان قد أصبح طبيبا خبيرا ومحترفا، وربما يزكى أحد الجراحين لإجراء الجراحة، ودائما ما يشير على المرضى بأى الأطباء يجب عليهم اللجوء إليه، وفي حالات أخرى يقنع أولئك الراغبين في إجراء عملية جراحية أو العلاجات الطبية الأخرى ويفضلونها على الذهاب إلى الينابيع الحارة، ويسمى لهم تلك الينابيع، أو يمنع أولئك الراغبين في الذهاب إلى الينابيع، وينصحهم بدلا من ذلك بتناول الأدوية تحت إشراف طبيب يسميه"[١٢٢]. ورغم أن الكاتب عبر هنا عن المفهوم الدينى السائد في المجتمع بتفوق قدرة القديسين العلاجية على الأطباء، كما جسد النمط الهجيوجرافي في تقديمه للقديس في صورة الخبير والمحترف فى شئون الطب التقليدي،

---

(١٢١) Nutton , *Galen to Alexander* , p.5.

(١٢٢) Dawes , *St. Theodore of Sykeon* , chs.145-6 ; Festugière , *Théodore de Sykeôn* ,chs.145-6 , pp.118-119.

وفي ذات السياق ؛ يقدم إفاجريوس حالة مماثلة تجسد التعاون بين رجال الدين والأطباء، أو إذا شئنا الدقة بين العلاج المقدس ونظيره التقليدي، حيث يشير إلى الراهب زوسيماس Zosimas الذي أرسل أحد أقرانه لمداواة امرأة فرغت إحدى عينيها بمكوك الغزل، غير أنه فشل، فأرسل زوسيماس "أحد مساعديه من الأطباء" لعلاجها. Evagrius , *Ecclesiastical History* , p.206.

والأهم في صورة الوصى والمرشد للأطباء[١٢٣]، إلا أنه قدم موقفا أكثر اعتدالا من الطب التقليدي، وصور العلاقة بين القديس والأطباء في إطار من الحميمية والتعاون.

وعلى ذلك ؛ يمكن القول بأن موقف كتاب الهجيوجرافيا المعادى للأطباء والطب التقليدي كان موقفا خاصا بهم، ولا يعبر بالضرورة عن اتجاه عام أو رسمى من جانب الكنيسة البيزنطية ورجالها، ولعل خير دليل على ذلك أن الأبواب كانت مفتوحة أمام الأطباء لشغل وظائف كنسية، فسوزومين يشير إلى مارتيريوس القيليقى Martyrius of Cilicia، الطبيب الخاص لنيكتاريوس Nectarius بطريرك القسطنطينية (٣٨١-٣٩٧م)، والذي رفض عرضه بأن يكون شماسا في البطريركية [١٢٤]، كما يحدثنا عن جيرونتيوس Gerontius الذي كان "طبيبا ماهرا للغاية "، لدرجة جعلت البطريرك نسطوريوس (٤٢٨-٤٣١م) ينصبه أسقفا على نيقوميديا[١٢٥]، كذلك يحدثنا زكريا الميتيليني عن سرجيوس Sergius، طبيب عصر جستنيان، الذي عمل مبعوثا خاصا لإفرايم Ephraim بطريرك أنطاكية، وحمل رسائله إلى كنيستى روما والقسطنطينية [١٢٦]، وكاتب معجزات القديس أرتيميوس، رغم موقفه المتطرف من الأطباء، أشار إلى أحد رجال الدين البارزين في البطريركية كان يعمل في مستشفى خريستودوتيس Christodotes [١٢٧]، ولعل في تكريس كتاب سير القديسين المعاديين للطب التقليدي مؤلفات خاصة تخلد معجزات القديسين كوزماس وداميان وكيروس، الذين كانوا أطباء أثناء حياتهم، دليلا آخر على أن الكنيسة البيزنطية لم تسمح فقط للأطباء بشغل وظائف دينية، بل فتحت أيضا أمامهم الطريق لبلوغ مرتبة القداسة ذاتها.

وإذا كانت الروايات المصدرية السابقة تقدم صورة إيجابية لموقف الكنيسة الرسمى من الطب التقليدي والأطباء، وتعكس في الوقت نفسه وضعا مميزا للأطباء في المجتمع الدينى، فإن المصادر التاريخية تقدم لنا صورة ووضعا مماثلين فيما يتعلق بالمكانة التي تبوأها الأطباء داخل المجتمع العلمانى، والإمكانيات التي أتيحت لهم في البلاط الإمبراطورى

---

(١٢٣) عبر الكاتب عن رويته الخاصة بتفوق قدرة القديس الشفائية في قوله : "كان أفضل الأطباء، تلميذا للمسيح الطبيب الحقيقي، من لا يلتزم بوصفته يصبح مرضه ميئوسا من شفائه، إلا إذا عاد ولجأ الى وصفة القديس بالذهاب إلى الينابيع التي يسميها، أو الطبيب الذي يختاره" .

Dawes , *St. Theodore of Sykeon* , ch.146 ; Festugière , *Théodore de Sykeôn* ,ch.146 , p.120.

(١٢٤) Sozomen , *Ecclesiastical History* , book vii , ch.x.

(١٢٥) Sozomen , *Ecclesiastical History* , book viii , ch.vi.

(١٢٦) Zachariah of Mitylene , *Chronicle* , pp.226-7.

(١٢٧) Crisafulli , *St. Artemios*, mir.22 , p.131.

والوظائف المدنية العليا، ففي القرن الرابع يحدثنا يونابيوس الساردیسی Eunapius of Sardis عن أورِيباسيوس البرجامي Oribasius of Pergamum، الذي كان "أهم رفقاء الإمبراطور جوليان، وأكثر ممارسي الطب شهرة وبراعة"، وصور مدى علاقته الحميمة بجوليان إلى درجة أنه صار قرينا له لم يفارقه سواء وهو قيصر لغالة أو إمبراطور على عرش القسطنطينية، وأن نفوذه وتأثيره على جوليان تعدى النصح والإرشاد إلى حد كونه، على حد تعبير يونابيوس نفسه، جعل من جوليان "إمبراطورا" [١٢٨]، كذلك تتحدث الحولية الفصحية عن يعقوب القيليقي Jacobus the Cilician، كبير أطباء القسطنطينية في عهد ليو الأول (٤٥٧-٤٧٤م)، والذي تمتع بنفوذ سياسي كبير لدى الإمبراطور والسناتو، وكان "مقربا ومحبوبا من ليو، كما أحبه كل السناتو والمدينة، لأنه كان فيلسوفا وطبيبا ممتازا" [١٢٩]، ويشير زكريا الميتيليني إلى ثيوكتيستوس Theoctistus، الطبيب السكندرى الخاص للإمبراطور باسيليسكوس Basiliscus (٤٧٥-٤٧٦م)، والذي عينه رئيسا لموظفي القصر الإمبراطوري [١٣٠]، ويشير ميناندر إلى الطبيب ثيودوروس Theodorus "طبيب جستين الخاص، والمقرب منه" [١٣١]، وتشير الحولية الفصحية إلى الطبيب توماس Thomas "سكرتير جستنيان الأول وطبيبه الخاص، والمحبوب منه بصورة خاصة" [١٣٢].

ويبدو أن نفوذ الأطباء في الحياة السياسية البيزنطية خلال العصر الباكر لم ينحصر في القصر الإمبراطورى فقط، بل تجاوز نطاقه إلى العلاقات الدبلوماسية الخارجية، حيث تحدثنا المصادر عن اعتماد أباطرة القرن السادس على عدد من الأطباء الذين نالوا شهرة

---

(١٢٨) Eunapius , in : *The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire : Eunapius , Olympiodorus , Priscus and Malchus* , trans. R.C. Blockley , Liverpool , 1983 , pp.6-127, esp. pp.21 , 33 , 43.

كان يونابيوس الساردیسی كاتبا ومؤرخا وثنيا، ولد عام ٣٤٥م وتوفي بعد عام ٤١٤م، درس الفلسفة والطب في أثينا والإسكندرية، وصار صديقا للطبيب الشهير أورِيباستوس، ولم يتبق من مؤلفه التاريخى سوى شذرات تغطي الفترة (٢٧٠-٤١٤م)، لمزيد من التفاصيل أنظر:

Baldwin , B., "Eunapios of Sardis' , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II , Oxford , 1991 , pp.745-6.

تناول بارى بلدوين في دراستين متخصصتين سيرة أورِيباستوس، أنظر:

Baldwin , B., "The Career of Oribasius" , *Acta Classica* 18(1975) , pp.85-97 ; Idem , *Doctors* , pp.17-18.

(١٢٩) *Chronicon Paschale* , p.88.

(١٣٠) Zachariah of Mitylene , *Chronicle* , p.104.

(١٣١) Menander , *History* , p.133.

(١٣٢) *Chronicon Paschale* , p.122.

ومكانة في هذا المجال، لعل أشهرهم طبيب القصر زكريا Zachariah الذي تردد إسمه كثيرا في المصادر التاريخية كسفير ودبلوماسي بيزنطي إلى بلاط الفرس،حيث أرسلته الإمبراطورة صوفيا Sophia مبعوثا شخصيا من لدنها إلى كسرى Chosroes، تطلب الصلح وتذكره بأنه عندما كان مريضا "لم تزوده بعناية طبية فائقة فقط، بل أرسلت إليه أفضل أطباء بيزنطة" [١٣٣]، وعندما وافق الملك الفارسي على عقد الصلح، أرسلت صوفيا طبيبها برسالة خطتها بنفسها، وعقد زكريا بتفويض منها صلحا لمدة عام (٥٧٤-٥٧٥م) لقاء دفع مبلغ ٤٥٠٠٠ نوميزما [١٣٤]، وأرسلته في سفارة ثالثة لعقد صلح مدته ثلاث سنوات عام ٥٧٦م [١٣٥]. وفي عهد تيبريوس (٥٧٨-٥٨٢م) كان الطبيب زكريا سفيرا مألوفا في المفاوضات البيزنطية الفارسية، حيث شارك في عدد كبير من السفارات إلى الحد الذي جعل ميناندر يصفه بـ "الذي دوما ما يعين في مثل هذه المهمة" [١٣٦]، وأنه "أثبت ولاء ومهارة عبر سفارات عديدة خلال هذه الحرب" [١٣٧]. وفي عهد جستنيان استخدم الأطباء كسلاح دبلوماسي فاعل في العلاقات البيزنطية الفارسية، حيث أرسل الطبيب تريبونوس Tribunus مرتين لعلاج كسرى، وفي المرة الثانية قضى عاما كاملا (عام ٥٤٥م) في البلاط الفارسي، ونجح في استغلال نفوذه في إطلاق سراح عدد كبير من الأسرى البيزنطيين عند عودته [١٣٨]، كما يشير

---

(١٣٣) Evagrius , *Ecclesiastical History* , p.271.

(١٣٤) Menander , *History* , p.159.

(١٣٥) يوحنا الأسيوى، تاريخ الكنيسة، ص١٠٢. Evagrius , *Ecclesiastical History* , p.271 , n.48.

(١٣٦) Menander , *History* , p.229.

(١٣٧) سجل ميناندر مشاركة زكريا في خمس سفارات إلى الفرس خلال عهد تيبريوس، وأنه بسبب ولائه ومهارته خلال هذه السفارات أنعم عليه تيبريوس بمنزلة Ex-prefect، بينما أشار يوحنا الافسوسى إلى مشاركته في مفاوضات سلام دون أن يحدد عدد السفارات. يوحنا الأسيوى، تاريخ الكنيسة، ص ١٠٢، ١١٥. Menander , *History* , pp.159-160 , 181 , 197 , 205 , 229.

(١٣٨) وصف بروكوبيوس الطبيب تريبونوس بأنه "كان رجلا ذو علم عظيم، لا يرقى أحد إلى مهارته في الطب"، ويروى كيف أن الملك الفارسى اعتاد أن يجمع حوله الأطباء من شتى الأنحاء، إلا أن تريبونوس وحده استطاع علاجه من مرض خطير، فمنحه هدايا كثيرة وثمينة عاد بها إلى الأراضى البيزنطية، وعندما أرسل الإمبراطور جستنيان سفارة لعقد صلح مع الملك الفارسى عام ٥٤٤م، اشترط الأخير إرسال الطبيب تريبونوس لقضاء عام في صحبته، ذلك لأن "الملك الفارسى كان يحبه ويفتقده كثيرا"، وبعد انقضاء العام سأله الملك الفارسى عن أمنية يحققها له، فطلب منه أن يطلق سراح عدد من الأسرى البيزنطيين، ولبى خسرو طلبه بأن أطلق سراح ثلاثة الآف أسير بيزنطى، كما أطلق سراح عددا من الأسرى البارزين ممن طلبهم الطبيب بالاسم .

Prccopius , *History of the Wars* , trans. H.B.Dewing , Loeb Classical Library , Cambridge Mass. & London , 1992 , I , p.517 ; V , pp.145-6.

زكريا الميتيليني إلى الطبيب البيزنطي يوسف Joseph، كاثوليكوس مسيحي فارس، والـذي "كان موثوقا به ومقربا من خسرو، لأنه طبيب، وكان يجلس بجواره في المقعد الأول ". ويبدو أن هناك أطباء بيزنطيين آخرين تمتعوا بنفوذ كبير لدى الملك الفارسي، منهم الطبيب الأسير تريبونيان Tribonian، حيث استطاعوا من خلال هذا النفـوذ تحـسين أوضـاع الأسـرى البيزنطيين في فارس، حيث يشير مينائدر إلى أن كسرى "أقام بناء علـى مـشورة الأطبـاء المسيحيين المقربين منه مستشفى لم يقم مثلها من قبل، وأرسل إليها مائة بغل وخمسين ناقـة محملين بالبضائع من المخازن الملكية، وزودها بإثني عشر طبيبا، وبكل مـا تحتاجـه مـن تجهيزات"[١٣٩].

وإذا كان الأطباء قد حظوا بمكانة متميزة في الكنيسة والقصر الإمبراطوري، فـلا شك في أنهم حققوا ذلك من خلال عملهم الأصلي كممارسين للطب التقليدي وكأطباء خاصين بالأباطرة والبطاركة، وفي هذا الصدد تبرز إشكالية أن هؤلاء بحكم وجـودهم فـي القـصر والكنيسة شكلوا فئة كبار الأطباء "الأرخياتروى *archiatroi* "، وأن وجودهم بـالقرب مـن مراكز السياسة وصناعة القرار جعلهم أكثر ظهورا في المصادر التاريخية عن غيرهم ممـن شكلوا الغالبية من ممارسي الطب الذين احتكوا بصورة مباشرة بطوائـف وفئـات المجتمـع المختلفة، وبالتالي قد يصبح من الصعب تكوين صورة مماثلة عن مكانة الطب والأطباء بـين عامة المجتمع، لكنها على آية حال ليست مهمة مستحيلة، فرغم أن الإشارات المصدرية فـي هذا الشأن قليلة ولا يمكن مقارنتها بطبيعة الحال بتلك الخاصة بأطباء القصر والكنيـسة، إلا أنها لم تختلف عنها في دلالتها ومضمونها، فإلى جانب إشارة الحولية الفصحية عن يعقـوب القيليقي، كبير أطباء القسطنطينية، الذي أحبته "كل المدينـة، لأنـه كـان فيلـسوفا وطبيبـا ممتازا"[١٤٠]، يقدم لنا سوزومين صورة، قد تبدو استثنائية، لمدى المكانة التي استطاع طبيـب

كذلك ؛ يشير بروكوبيوس إلى ستيفانوس Stephanus "الطبيب الذي حقق شهرة ومعرفة كبيرتين بين علماء عصره"، والذي شارك في سفارة أخرى إلى الملك الفارسي عام ٥٤٤م.

Procopius , *Wars* , I , pp.497-8.

Zachariah of Mitylene , *Chronicle* , pp.331-2. (١٣٩)

ومن الجدير بالذكر، أنه إذا كان الأطباء قد لعبوا دورا ايجابيا في العلاقات الدبلوماسية الخارجية للإمبراطورية البيزنطية، خاصة مع الفرس، فإن بعضهم اتهم بالخيانة والتآمر مع أعداء الإمبراطورية، حيث يشير مالخوس الفيلادلفي Malchos of Philaelphia إلى اعتقال الطبيب أنثيموس ماركيللينوس Anthimus Marcellinus ونفيه مع آخرين بتهمة الخيانة العظمى لإرسالهم خطابات إلى الملك القوطي ثيودريك، بعضها مسهورا بتوقيعات كبار الموظفين، لدعمه في صراعه مع الإمبراطور زينون، وجعله "يعتقد بأن لديه مويدين كافيين داخل المدينة" .

تحقيقها بين عامة المجتمع، عندما يشير إلى جيرونتيوس الذي كان "طبيبا ماهرا للغاية، حصيفا وبليغ اللسان، ويعرف كيف يكسب الأصدقاء"، ويحكي قصته منذ أن جاء من ميلان إلى القسطنطينية بعد اتهامه بالهرطقة من قبل أسقفها أمبروز، وكيف استطاع خلال فترة قصيرة أن يحظى بصداقة وتقدير أكثر رجال القصر نفوذا، وأن ينال تقديرا بالغا من البطريرك نسطوريوس الذي عينه أسقفا على نيقوميديا. وعندما علم أمبروز بذلك أرسل إلى نسطوريوس يطلب منه عزله، وهنا يستطرد سوزومين بقوله : "ورغم أن نسطوريوس لبى الطلب، إلا أنه لم يستطع وضعه في إطار التنفيذ بسبب معارضة شعب نيقوميديا الذي ثار دفاعا عن جيرونتيوس، لكرمه ونشاطه في توظيف حرفته لصالح الفقراء والأثرياء على السواء، وراحوا يجولون شوارع نيقوميديا والقسطنطينية وكأن زلزال أو طاعون أو عقاب إلهى آخر قد حدث" [١٤١]. كذلك يشير أجاثياس إلى الطبيبين الشقيقين ديوسقوروس Dioscorus وألكسندر الترالىسى، الذين أثبتا مهارة فائقة في حرفة الطب، وفي حين قضى الأول حياته في تراليس وحقق مكانة ونجاحا بارزين في ممارسته للطب بين مواطني المدينة، أقام الثانى في روما وشغل بها وظيفة عليا[١٤٢].

ولا شك في أن هذه الإشارات، رغم قلة ورودها في المصادر التاريخية، تدل على أن الأطباء حظوا بمكانة متميزة بين مختلف فئات وطبقات المجتمع البيزنطي، وأن ممارستهم للطب ونجاحهم فيها كانت سببا أساسيا في تحقيقهم لهذه المكانة. ويبدو أن كتاب سير القديسين المعاديين، رغم حرصهم على إلصاق صفات الفشل والجشع بالأطباء، إلا أن أحدهم وأكثرهم عداء لهم، وهو كاتب معجزات القديس أرتيميوس، لم يستطع إنكار ذلك، عندما أشار دون قصد إلى طبيب فارسي المولد "مشهود له من قبل الجميع بالكفاءة والقدرة على علاج كافة

Malchus , in : *The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire : Eunapius , Olympiodorus , Priscus and Malchus* , trans. R.C. Blockley , Liverpool , 1983 , pp.402-55 , esp. p.423.

كان مالخوس خطيبا وفيلسوفا شهيرا في القسطنطينية أواخر القرن الخامس وبداية القرن السادس الميلاديين، وضع مؤلفا تاريخيا أطلق عليه *Byzzntiaka*، لم يتبق منه إلا شذرات تغطى عصرى ليو الأول وزينون، لمزيد من التفاصيل، أنظر:

Baldwin , B., "Malchus of Philadelphia" , *Dumbarton Oaks Papers* 31(1977), pp.89-107.

(١٤٠) أنظر حاشية (١٢٩).

(١٤١) Sozomen , *Ecclesiastical History* , book viii , ch.vi.

(١٤٢) Agathias , *Histories* , p.141

الأمراض"[١٤٣]. وأخيرا ربما يجدر تسجيل ملاحظة بروكوبيوس عن وضع الأطباء ومكـــانتهم في المجتمع البيزنطي، ففي سياق نقده اللاذع لسياسة جستنيان في مؤلفه "التـــاريخ الـــسري"، يشير إلى تدميره كل أصحاب المقامات الرفيعة والوظائف العليا في بيزنطة والمدن الأخرى، والأهم أنه بدأ حديثه عن هؤلاء بالمحامين ثم الأطباء فالمعلمين"[١٤٤].

ولاشك في أن مكانة أصحاب أى مهنة داخل المجتمع تتوقف على أهمية هذه المهنة ومدى نجاحها في خدمة هذا المجتمع، وفي هذا السياق تقدم لنا المصادر الطبية صورة إيجابية لمهنة متقدمة وفاعلة في التعامل مع الاحتياجات المجتمعية، وبالإضافة إلى أن مجال اهتمـــام البحث لا يتضمن مناقشة الطب البيزنطي بفروعه ومناهجه ومؤلفاتـــه، فـــإن العديـــد مـــن الدراسات التي وضعها باحثون أطباء متخصصون في تاريخ الطب البيزنطي عن المؤلفـــات الطبية في العصر البيزنطي الباكر[١٤٥]، كفت الباحث مشقة وصعوبة البحث في قضايا طبيـــة

---

(١٤٣) Crisafulli , *St. Artemios*, mir.23 , p.139.

(١٤٤) بروكوبيوس، التاريخ السرى، ص١٦٨. Procopius , *Secret History* , p.303.

(١٤٥) من هذه الدراسات على سبيل المثال لا الحصر، دراسة نوتون عن الممارسات الطبية في العصر البيزنطي الباكر، والذي عرض فيها للكتابات الطبية التي وضعها أطباء العصر، ووصل إلى نتيجة مؤداها: "ربما كانت مؤلفات الأطباء أوريباسيوس البرجامى Oribasius of Pergamum وألكسندر الترالسى Alexander of Tralles و بولس الايجينى Paul of Aegina، موسوعات أو ملخصات لأعمال جالينوس في القرن الثانى الميلادي، إلا أنهم بأى حال لم يكونوا ناسخين سذج، أو جامعين دون وعى، فقد اختاروا ما دونوه، ودائما ما أضافوا إليه مادة جديدة وقارونها مع الماضى، ... إن مطالعتى لأوريباسيوس ملأتنى إعجابا بمعرفته التامة بجالينوس، وبقدرته على التلخيص مع الحفاظ على الأصل قدر الإمكان، والأهم قدرته في عصر يغلب عليه الطابع الخطابى والإنشائى على أن يعبر عن الأساسيات بوضوح".(Nutton , *Galen to Alexander* , pp.2-3.). ومن هذه الدراسات أيضا، دراسة عن "الجراحة التقويمية و التعويضية للوجه في بيزنطة إبان القرن الرابع الميلادي"، ناقشت إسهام أوريباسيوس في هذا المجال بالقول :" كان أوريباسيوس طبيبا بيزنطيا شهيرا عاش في القرن الرابع، إسهامه الكبير لتاريخ الطب هو مختاراته من الاعمال الطبية الهامة لعصره، والمعنونة بـــSynagogue Medicae ، وهى موسوعة طبية شاملة لعصره ضمت أكثر من سبعين جزء، ورغم أن جانبا هاما منها فقد، إلا أن ما تبقى منها يقدم لنا معلومات ثرية عن الطب البيزنطي. ويعد الفصلين الخامس والعشرين والسادس والعشرين من الكتاب الثانى والأربعين ذو أهمية خاصة للجراحة التقويمية والتعويضية (فرع من الجراحة يعنى بتقويم أو ترقيع أعضاء الجسم المشوهة أو بالتعويض عن أجزائه المفقودة)، لأنهما يعنيان بتقويم عيوب وتشوهات الوجه عن طريق عمليات جراحية في الحاجبين والجبهة والوجنتين والأنف والأذن باستخدام أنسجة من الجسم، وقد أصبح واضحا من هذه النصوص أن الجراحين البيزنطيين تمتعوا بقدر كبير من المعرفة والخبرة في إجراء العديد من الجراحات التقويمية والتعويضية للوجه، وهى المعرفة التي انتقلت إلى العرب، ثم إلى الغرب الأوروبى في القرن الخامس عشر، وأصبحت جزءً من مؤسسة الجراحة التقويمية والتعويضية الحديثة".

وعلمية معقدة، وأظهرت في الوقت ذاته طبا متقدما وفاعلا بمقاييس ذلك العصر [١٤٦]. وفـي

Lascaratos , J., & Cohen , M., & Voros , D., "Plastic Surgery of the Face in Byzantium in the Fourth Century" , *American Society of Plastic Surgeons* 106/2(August 2000) p.517 , http://www.medscape.com/medline/abstract/9734459?Src=emed_ckb_ref_0 ; Santoni-Rugui, P., & Mazzola, R. , "Plastic surgery of the face in the fourth century (Letter)" , *Plastic Reconstrution Surgery* 104(1999), p. 883

كذلك، كتب دوفي عن طبيب القرن السادس ألكسندر التراليسى : "إنه مرشد جيد لوقائع الحياة اليومية للممارسات الطبية البيزنطية في القرن السادس، فقد كتب في أواخر حياته كتابا يدويا من النوع التقليدي لاستخدام الأطباء، يتناول الجسم من الرأس إلى أصابع القدمين، أو بالتعبير الباثولوجى (المرضى) من الصلع إلى النقرس، وهو مؤلف يستحق الاهتمام، ولا يدع مجالا للشك في معرفة هذا الرجل المستقاة من المصادر الأولية، ومع ذلك كانت القاعدة الأساسية لعمله هى الخبرة والتجربة، ... لقد كان أبقراط وجالينوس هما معلماه الرئيسيان من بين الأطباء القدماء، ومع ذلك لم يكن في وصفه للعلاج تابعا أعمى لهما، بل كان يعى أين يرسم خطا بين احترامه لهؤلاء وبين تأكيد استقلاليته، حتى وإن كانت هذه الاستقلالية تعنى اختلافه مع جالينوس، فقد اختار الحقيقة قبل النص، والعامل الحاسم دوما هو التجربة، ويتضح جوهر تفكيره في قوله : إن لم تكن العلاجات فعالة، فلا أهمية لما قاله القدماء عنها"

Duffy , *Byzantine Medicine*, p.25 ; Scarborough , *Alexander of Tralles* , p.58.

كذلك، وضع الباحث التركى جورونلوجلو دراسة عن بولس الإيجينى ودوره في الجراحة التقويمية والتعويضية في القرن السابع، جاء فيها :"إن بولس الإيجينى (٦٢٥-٦٩٠م)، الذي ولد في جزيرة إيجينا ومارس الطب في الإسكندرية، يعد أخر نخبة كتاب الطب في العصر البيزنطي، وضع موسوعة طبية في سبعة كتب، خصص كتابه السادس للحديث عن الجراحة، وأظهر فيه أنه لم يكن مجرد جامع أو ناسخ بل جراحا ماهرا وذو كفاءة، فبالإضافة إلى أهميته في التطور العام للجراحة، قدم إسهامات قيمة في تاريخ الجراحة التقويمية و التعويضية، بل ربما يعد أحد أصول هذا النوع من الجراحة كما هو معروف اليوم، فقد وصف جراحات عديدة ومتنوعة من علاج كسور الأنف والفك إلى جراحات العقد والفقرات، ولذلك أصبح أستاذا للجراحة أثر في أجيال متتالية من الجراحين عبر العصور اللاحقة، وظل المصدر الوحيد للعديد من المؤلفات العربية عن الجراحة، وعبر مؤلفه إلى الطب الاسلامى والأوروبى لينقل المعرفة والخبرة الجراحية، بما في ذلك إجراءات جراحات تقويمية وتعويضية عديدة ."

Gurunluoglu , R., "Paulus Aegineta, A Seventh Century Encyclopedist and Surgeon : His Role in the History of Plastic Surgery" , *Plastic and Reconstructive Surgery* 108/7(December 2001), pp.7072-9 ; Adams, F. *The Seven Books of Paulus Aegineta. Translated from the Greek. With a Commentary Embracing a Complete View of the Knowledge Possessed by the Greeks, Romans, and Arabians on All Subjects Connected with Medicine and Surgery*, Vol. 1–3. London, 1844–184.

(١٤٦) ولمزيد من التفاصيل عن حال الطب البيزنطي وفروعه وعلاجاته ومناهجه، أنظر:

Scarborough , J., "Medicine" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II , Oxford , 1991 , pp.1327-8 ; Temkin , O., "Byzantine Medicine : Tradition and Empiricism" , *Dumbarton Oaks Papers* 16(1962) , pp.95-115 ; Garrison, F. H. , " The Byzantine period" , in : *An Introduction to the History of Medicine with Medical Chronology*, 2nd Ed. Philadelphia: Saunders, 1917 , pp. 104–109 ; Leonardo, R. A., "Byzantine surgery" , in : *History of Surgery* , New York: Froben Press, 1943 , pp. 69-79 ;

هذا السياق تظهر أهمية إشارات الكتابات الهجيوجرافيـــة ذاتهـــا عـــن المؤســـسات الطبيـــة البيزنطية، حيث تقدم لنا دلالتين هامتين، تتمثل الأولى في وجود مستشفيات وهيئـــات طبيـــة منظمة وفاعلة تختلف تماما عن الصورة السلبية التي عكستها الدعاية الهجيوجرافية المعادية للطب والأطباء، وتتمثل الثانية في مشاركة الكنيسة والقديسين أنفسهم في بناء ودعم مثل هذه المستشفيات، الأمر الذي يؤكد موقف الكنيسة الرسمى الإيجابى تجاه الطـــب والأطبـــاء، وأن موقف كتاب الهاجيوجرافا المعادى ليس إلا موقفا استثنائيا يعبر عن وجهة نظر فئـــة قائمـــة بذاتها لا تشمل كافة رجال الدين أو كل كتاب الهجيوجرافيا .

ومما له دلالة ؛ أن كتاب الفئة المعادية أشاروا إلى وجود مستشفيات كنسية ملحقـــة بالكنائس المكرسة للقديسين المعالجين، فكاتب معجزات القديسين كوزماس وداميان يشير إلى قيامهما بعلاج مريض كان يرقد على سرير يقع بالقرب من حجرة مخزن الأدوية بالمستشفى الملحقة بكنيسة القديسين [١٤٧]. وفي النصف الأول من القرن السابع يحدثنا كاتب سيرة القديس يوحنا المعطاء St. John the Almsgiver عـــن قيامـــه بتـــشييد ســـبع مستـــشفيات ولادة بالإسكندرية، تضم الواحدة منها أربعين سريرا [١٤٨]. وفي معجزات القديس أرتيميوس يستطيع المرء أن يجد، بين النقد اللاذع والهجوم العنيف الذي شنه كاتبها علـــى الطـــب والأطبـــاء، معلومات قيمة عن المؤسسات الطبية وتنظيمها في مدينة القسطنطينية، كما هو الحـــال فـــي قصة ستيفن شماس كنيسة آيا صوفيا، المصاب بالفتاق الإربى، والذي لجأ إلـــى المستـــشفى الملحقة بدير القديس سامسون St. Samson، ورقد في غرفة بجوار مدخل حجـــرة أطبـــاء وجراحى العيون Ophthalmologists، وتلقى علاجا موضعيا بالكى اســـتمر ثلاثـــة أيـــام،

Kislinger E. , "Gynecology in Everyday Life in Byzantium" , *Proceedings of the First International Byzantine Symposium. The everyday life in Byzantium* , Athens: National Foundation for Scientific Research, 1989. p. 135–52 ; Daras , M.D., & Eftychiadis , A.C., "Epilepsy in the Byzantine Empire" , *American Academy of Neurology* 52/6-supplement 2 (12 April 1999) , pp.A72-A73 ; Lascaratos , J., & Lazaris , D., & Kreatsas , G., "A Tragic Case of Complicated Labour in Early Byzantium(404 A.)" , *European Journal of Obstetrics& Gynecology and Reproductive Biology* , 105/1 (10 October 2002), pp.80-3.

(١٤٧) Festugière , *Saints Côme et Damien* ,mir.30.

وفي هذا السياق، يرى ماجولياس أن الكنائس التي ضمت أضرحة القديسين المعالجين كانت في حد ذاتها مستشفيات، يلجأ إليها المرضى ويرقدون على آسرة بداخلها إنتظارا لزيارة إعجازية للقديسين، أملا في تلقى العلاج والشفاء من علاتهم . Magoulias , *Byzantine Medicine* , p.136.

(١٤٨) The Life of St. John the Almsgiver , in: *Three Byzantine Saints : Contemporary Biographies of St. Daniel the Stylite , St. Theodore of Sykeon and St. John the Almsgiver* , trans. E. Dawes , introductions & Notes by N.H. Baynes , London , 1948 , ch. 7.

وأجريت له الجراحة في اليوم الرابع [١٤٩]. وفي معجزة أخرى يشير الكاتب إلى مريض بالاستسقاء اصطحبه رجل بارز في السلك البطريركى كان يعمل في مستشفى خريستودوتيس Christodotes الملاصقة لكنيسة القديسة أناستاسيا St. Anastasia، ووضعه بسرير بها بعد أن عهد برعايته إلى كبار الأطباء *archiatroi* المناوبين خلال ذلك الشهر ومعاونيهم، وبعد أن أمضى المريض عشرة أشهر، تلقى خلالها أفضل ما لدى الأطباء من قدرة على العلاج، دون أن تحقق حالته أى تحسن، راح يتضرع إلى القديس أرتيميوس بأن ينعم عليه بإحدى معجزاته العلاجية، فزاره القديس عشية عيد ميلاد المسيح في منامه وأخبره بأنه سيشفي، ولأن يوم الأحد أجازة الأطباء، ولأنه أيضا صادف يوم عيد الميلاد، لم يأت أى منهم إلى المستشفى بعد الظهيرة، فظهر القديس لأحد الأطباء وأمره بالعودة إلى المستشفى، وعلى ذلك تم علاج المريض بواسطة الطبيب وبتوجيه من القديس[١٥٠]. وهذه المعجزة، برغم هدفها الواضح في إظهار قدرات القديس أرتيميوس العلاجية، تقدم لنا نموذجا لمستشفى منظمة تضم طاقما من الأطباء والممرضين، ويتناوب فيها كبار الأطباء (الأرخياتروى) بصفة شهرية، وفي أيام الآحاد والأعياد لا يقومون بمناوبتهم المعتادة بعد الظهيرة[١٥١].

وإذا كانت الكنيسة والمؤسسة الدينية قد تعهدت المؤسسات الطبية بالرعاية، فقد شاركها القصر الإمبراطورى في هذا الصدد، وكما لاحظ ماجولياس "في الإمبراطورية البيزنطية كانت المستشفيات تبنى وتدعم من الكنيسة والإمبراطور"[١٥٢]، وكانت الغاية التي أفصحت عنها المصادر هى رعاية المرضى الفقراء غير القادرين على تحمل نفقات العلاج

---

(١٤٩) Crisafulli , *St. Artemios*, mir.21 , pp.125-7.

(١٥٠) Crisafulli , *St. Artemios*, mir.22 , pp.131-137.

الاستسقاء : حالة مرضية تنتج عن التراكم غير الطبيعى للسائل المائى فى أنسجة الجسم أو فى أحد تجاويفه مما يؤدى إلى حدوث أورام وتضخم فى أنسجة الجسم، ويحدث عادة أثر جلطة دموية ينتج عنها انسداد موضعى فى الأوعية الدموية، أو بسبب فشل الكلى أو الكبد، أو بسبب نقص الفيتامينات والبروتينات فى الجسم، أو بسبب إصابة الجسم بأورام خبيثة . وهو من الأمراض العسيرة الشفاء. لمزيد من التفاصيل، أنظر : الموسوعة الطبية الميسرة، http://www.wataan.com/tib/index.php?badre=4/12

(١٥١) يرى ماجولياس أن هذه المعجزة تقدم صورة جيدة عن مستشفيات وأطباء القسطنطينية في منتصف القرن السابع، كما يرى أبرهامز أن الأرخياتروى كانوا ينتمون إلى هيئة الأطباء الإمبراطورية، وبالتالى هم أكثر أفراد المهنة تميزا، وأنه إذا كانت مناوبتهم الشهرية في مستشفى خريستودوتيس نموذجا لبقية مؤسسات القسطنطينية الطبية، فإن ذلك يوحى بأن هيئة أطباء مستشفيات العاصمة كانت كبيرة ومنظمة جيدا.

Magoulias , *Byzantine Medicine* , *p.136 ; Abrahamse , D.Z.F., Hagiographic Sources for Byzantine Cities 500-900 A.D.* , Ph.D. dissertation , University of Michigan , 1967 , University Microfilms. Inc., Ann Arbor , Michigan , pp.247-8.

(١٥٢) Magoulias , *Byzantine Medicine* , p.135.

وأجور الأطباء، فيحدثنا بروكوبيوس عن مستشفى سامسون التي شيدها القديس سامسون بديره بين كنيستى القديسة ايرينى وآيا صوفيا، والتي "كرست للمرضى المعدمين الذين يعانون من الأمراض الخطيرة، وأولئك الذين يعانون من نقص في المال والصحة"، وأن الإمبراطور جستنيان أعاد بنائها بعد تعرضها للتدمير وقت الثورة الشعبية، وجعلها "فخمة في البناء وجمال التكوين، وأكثر سعة في عدد حجراتها، وكرس لها دخلا سنويا بهدف الإنفاق على المرضى "[١٥٣].

ورغم أن المصادر لا تقدم لنا صورة دقيقة عن مدى قدرة استيعاب المستشفيات الكنسية والحكومية للمرضى غير القادرين على تحمل نفقات العلاج وأجور الأطباء، ولا تقدم في الوقت ذاته صورة واضحة عن حجم المؤسسة الصحية في الإمبراطورية ولأعداد هؤلاء الفقراء والمعدمين، إلا أن الشواهد، رغم قلتها، توحى بأن الطاقة الاستيعابية لتلك المؤسسة لم تستطع مواكبة الأعداد المتزايدة من المرضى الفقراء والمعدمين، خاصة إذا وضع في الإعتبار أن العصر البيزنطي الباكر شهد العديد من الكوارث الطبيعية، كالزلازل والطواعين والأوبئة والمجاعات، كما شهد أيضا العديد من الثورات الداخلية والحروب الخارجية، ولا شك في أن هذه الكوارث والحروب أسهمت في تزايد نسبة الفقر والمرض، وشكلت ضغطا شديدا على المؤسسة الصحية البيزنطية، ولعل في إشارات المصادر إلى مشاركة القادرين من المجتمع في دعم الفقراء والمرضى، خاصة في مثل هذه الظروف الطارئة، شاهدا على قصور المؤسسة الصحية البيزنطية وعجزها عن مواجهتها وحدها.

ففي سيرة القديس يوحنا المعطاء كان السبب الذي دفعه إلى بناء سبع مستشفيات للولادة، أنه "أثناء المجاعة التي حلت بالمدينة، تركت النساء أسرتهن وهن يعانين من الهزال والضعف بعد ألم ومخاض الولادة بحثا عن الصدقات التي قد تسد جوعهن"، ولذلك خصص القديس لكل أم منهن سبعة أيام من الراحة والرعاية، وثلث نوميزما (تريميسيّس *tremissis*) تحصل عليها قبل مغادرة المستشفى[١٥٤]. وعندما هرب آلاف اللاجئين من سوريا إلى الإسكندرية في أعقاب الغزو الفارسي، فتح القديس يوحنا كافة النزل والمستشفيات الملحقة

---

(١٥٣) Procopius , *Buildings* , p.37.

يشير بروكوبيوس أيضا إلى تشييد مشفيين آخرين في مبنيين house of Isidorus و house of Arcadius قبالة مستشفى سامسون، وتشييد مستشفيات أخرى في أنحاء متفرقة من الإمبراطورية، منها واحدة بجناحين منفصلين للنساء والرجال في انطاكية، وواحدة في بيت المقدس .Ibid , pp.37 , 173 , 34

(١٥٤) Dawes , *St. John the Almsgiver* , ch.7.

بالكنيسة للمرضى والجرحى، ووفر لهم الآسرة والعلاج دون مقابل[١٥٥]. كذلك يشير يوحنا الإفسوسى في سيرة القديسة يوفيميا St. Euphemia إلى أنه في شوارع آمد Amida يستطيع المرء أن يشاهد المشلولين والأكفاء والمسنين بدون رعاية، وأن القديسة يوفيميا حملت على عاتقها رعاية أولئك البؤساء، فـ"أخذت بعضهم إلى بيتها، وحملت آخرين إلى مديري المستشفيات، ودفعت نفقات علاجهم، وعلى نفقتها تم قبولهم ورعايتهم"[١٥٦]. كما كتب أجاثياس عن كارثتي الزلزال والطاعون اللذين ضربا القسطنطينية في عهد جستنيان، وتحدث عن أعداد غفيرة من القتلى والجرحى والمرضى والمشردين إفترشت الأرض وملأت شوارع القسطنطينية، وكيف أن أثرياء المجتمع جالوا الشوارع لتقديم المساعدات، وجلبوا الهبات إلى الكنائس التي امتلأت هى أيضا عن أخرها بأولئك البؤساء[١٥٧]. وتحدث بروكوبيوس أيضا عن الكوارث التي لحقت بولايات ومدن الإمبراطورية من فيضانات وزلازل وطواعين، وكيف أنها دمرت مدنا بأكملها وأبادت سكانها، ووصف وباء الطاعون بأنه "سبب الموت لنصف الأحياء"، وأن "الموت كان يجرى في كل مكان"[١٥٨].

وعلى ذلك ؛ ربما يمكن القول بأن قصور المؤسسة الصحية البيزنطية عن استيعاب أعداد المرضى المتزايدة، خاصة خلال فترات الكوارث والأزمات، ربما أدى إلى اكتظاظ المستشفيات بالمرضى، وربما أدى بالتالي إلى تزايد أجور الأطباء [١٥٩]، وجعل من أضرحة

---

(١٥٥) A Supplement to the Life of St. John the Almsgiver written by Leontius Bishop of Neapolis in the Island of Cyprus , in : *Three Byzantine Saints : Contemporary Biographies of St. Daniel the Stylite , St. Theodore of Sykeon and St. John the Almsgiver* , trans. E. Dawes , introductions & Notes by N.H. Baynes , London , 1948 , ch. 7.

(١٥٦) John of Ephesus , Lives of Sts. Mary and Euphemia , in : *Holy Women of the Syrian Orient* , trans. S.P.Brock & S.A.Harvey , Berkeley-Los Angeles- London , 1987 , pp. 122-133 , esp. p. 127.

(١٥٧) Agathias , *Histories* , pp. 140 , 145.

(١٥٨) بروكوبيوس، التاريخ السرى، ص١٣٨-١٣٩. Procopius , *Secret History* , pp. 225-6.

(١٥٩) رغم احتماية تزايد أجور الأطباء في العصر البيزنطي الباكر نتيجة قصور المؤسسة الصحية البيزنطية عن استيعاب الأعداد المتزايدة من المرضى الفقراء والمعدمين، إلا أنه في هذه الحالة ربما لا يمكن مقارنة هذا التزايد مع الأجور الخيالية، والمبالغ فيها بشكل كبير، الواردة في الكتابات الهجيوجرافية، والتي أشير إليها قبلا، أنظر حاشية (٦٨). وفي هذا الصدد، تقدم لنا المصادر التاريخية إشارات عن مشاركة عدد من الأطباء في النشاط الخيرى، بتكريس جزءتهم للتخفيف من الآم المرضى الفقراء والمعدمين، فيعقوب القيليقى طالب الأثرياء بمساعدة الفقراء، وعالج الفقراء دون أجر معتمدا على الراتب السنوى الذي يتقاضاه بوصفه طبيب إمبراطورى، وتشير الحولية الفصحية إلى أنه كان يعالج مرضاه بالماء البارد لتخفيف توترهم وقلقهم بشأن المال، ولذلك لقب بالبارد Psychrestus، وحظى بمحبة الامبراطور والسناتو والشعب، وكرم بنحت

القديسين والعلاج المقدس ملاذا ملائما للمرضى من الفقراء والمعدمين[١٦٠]، خاصة إذا وضعنا في الإعتبار العقلية الشعبية البيزنطية التي دوما ما ربطت أية كارثة طبيعية بفكرة العقاب الإلهي وضرورة التكفير عن الخطايا والأثام، وهي العقلية التي أبرزها أجاثياس عندما انتقد حالة الهوس الديني التي أصابت مجتمع القسطنطينية عقب زلزال عام ٥٥٧م[١٦١]، فضلا عن كون العلاج المقدس، كما وضح عبر الدراسة، قد شكل جانبا جوهريا وأساسيا في الفكر الديني الشعبي البيزنطي.

ومن ناحية أخرى ؛ ربما يمكن القول بأن طبيعة خطورة بعض الأمراض التى عانى منها المرضى البيزنطيون، وارتفاع تكلفة علاجها، خاصة تلك التى تستدعى تدخلا جراحيا، كالفتاق وأمراض الكلى والاستقساء والأورام وغيرها مما ذكر عبر صفحات البحث، أدت من ناحية إلى ارتفاع أجور الأطباء المتصدين لعلاج مثل هذه الأمراض -وإن لم يكن هذا الارتفاع قد بلغ بالضرورة حد الأرقام المبالغ فيها من قبل كتاب سير القديسين المعادين للطب

تماثيل له وضعت بأثينا والقسطنطينية. كذلك نصح ألكسندر التراليسى الأطباء بالترفق بالمرضى الفقراء، وعاب على أطباء عصره مغالاتهم في أثمان العقاقير المركبة، ناصحا بتجنبها قدر الإمكان، خاصة المؤلمة والقاسية منها أو تلك التي ثبت خطورة أعراضها الجانبية، وراح ينكرهم بأن ليس ضروريا أن يكون الدواء معقدا أو مرتفع الثمن حتى يكون فعالا. ومع أن هذه الإشارات تخالف دعاية كتاب الهجيوجرافيا المعادين للطب والأطباء، وتؤكد وجود أطباء خيرين لم يتسموا بالجشع أو ابتزاز المرضى، إلا أنها تحمل دلالات ضمنية على إرتفاع تكلفة اللجوء إلى الأطباء والتدواى بأدويتهم .

Chronicon Paschale , p. 88 ; Nutton , *Galen to Alexander* , p. 4 ; Duffy , *Byzantine Medicine* , p. 25.

وقد اعتمد نوتون على حالتي الطبيبين يعقوب القيليقى وألكسندر التراليسى، وحالات أخرى لأطباء نقشت على شواهد قبورهم مسمى "رجال الروح"، للقول بأن أولئك الأطباء كانوا يعبرون عن إيمانهم المسيحى أكثر من تعبيرهم عن تعليمهم الطبى، وأن الإيمان لعب دورا محوريا في صياغة أفكارهم، ورغم اتفاق الباحث مع هذا الرأى، خاصة وأن أولئك الأطباء أفراد من المجتمع، تأثروا بالمناخ الدينى الذي ساد مظاهر الحياة البيزنطية إبان العصر الباكر، إلا أنه أيضا يمكن القول بأنهم حاولوا من خلال ذلك درء الاتهامات الموجهة إلى الطب والأطباء، وتحسين صورتيهما في مواجهة الدعاية المعادية لهما.أنظر

Nutton , *Galen to Alexander*, p. 4.

(١٦٠) من الملاحظ أنه إذا كان هذا التفسير يصلح بالنسبة للطبقة الفقيرة والمعدمة، إلا أنه بطبيعة الحال لا ينطبق على الطبقة الثرية القادرة على تحمل ارتفاع أجور الأطباء، وانه إذا كان هناك اختلاف بين قدرة الطبقتين على استخدام الأطباء بسبب ارتفاع أجورهم وعجز الفقراء عن دفعها، إلا أن مجانية العلاج المقدس جعلته علاجا متاحا ومتوفرا، وبالطبع مرغوبا فيه، لكل فئات المجتمع البيزنطي، فقرائه وأثريائه.

(١٦١) Agathias , *Histories* , pp.137-141.

وأنظر حاشية (٩٤).

التقليدى، أو أنه شمل جميع الأطباء وكافة أنواع الأمراض -، وأدت من ناحية أخرى إلى طول فترة العلاج وارتفاع نفقاته، الأمر الذى ربما أظهر الطب التقليدى بمظهر العاجز عن التعاطى مع مثل هذه الأمراض المستعصية، ولعل ذلك كله شكل سببا إضافيا لتفضيل العلاج المقدس، وقدم المبررات والحجج القوية التى اعتمد عليها كتاب السير فى حملتهم الدعائية ضد الأطباء وحرفتهم التقليدية، ولعل هذا فى حد ذاته يقدم تفسيرا للعوامل التى دفعت المواطن البيزنطى البسيط إلى اللجوء لمعجزات القديسين بعد تجربيه علاج الأطباء أولا، وهى عوامل ترتكز فى المقام الأول على جوانب دينية وتراثية وثقافية وعرفية ونفسية شكلت طبيعة الشخصية البيزنطية ورؤيتها للطب بأنواعه التقليدية والفلكلورية والمقدسة، وهى الطبيعة التى ربما وضعها عدد من الأطباء فى اعتباراتهم العلاجدية عندما نصحوا مرضاهم باللجوء إلى العلاجات الفلكلورية بعد فشل الطب التقليدى فى مداواتهم.

وأخيرا ؛ يمكن القول بأن المجتمع البيزنطى، شأنه فى ذلك شأن المجتمعات الأخرى، ضم خليطا من الرؤى والمعتقدات التى قد تبدو متباينة، وأحيانا كثيرة متناقضة، نبع من تنوع واختلاف العوامل الأساسية المؤثرة فى تكوين العقلية البيزنطية، وأعنى هنا بطبيعة الحال التراث الكلاسيكى والمسيحية، ولاشك فى أن هذا الخليط أنتج مواقفا متباينة شملت كافة طوائف وفئات هذا المجتمع، وعلى ذلك لم يكن أمرا مستغربا أن توجد بين الطبقات العليا والوسطى والدنيا، بشرائحها المختلفة من آباطرة ومثقفين وأطباء، وحتى رجال دين، مواقف متباينة حيال الاعتقاد فى معجزات القديسين الشفائية وقدرات الطب التقليدى، ولم يكن مستغربا أيضا أن يوجد المؤيدون والمعارضون بين أفراد الطبقة الواحدة أو الفئة الواحدة، وربما أتاح هذا التباين فى حد ذاته الاستمرارية والبقاء لمختلف الاتجاهات والمعتقدات، وجعل من الطبيعى أن يستمر الطب بأنواعه المختلفة يؤدى دوره بفاعلية فى المجتمع، وإن ظلت الغلبة فى هذا الميدان للعلاجات الفلكلورية ومعجزات القديسين، لعوامل قد تتعلق بالأمية والفقر، فضلا عن العوامل الدينية والعرفية والنفسية التى ذكرت قبلا.

قائمة المصادر والمراجع

أولا. المصادر والمراجع الأجنبية :

Abrahamse , D.Z.F., *Hagiographic Sources for Byzantine Cities 500-900 A.D.* , Ph.D. dissertation , University of Michigan , 1967 , University Microfilms. Inc., Ann Arbor , Michigan .

Adnès , A., & Canivet , P., "Guérisons miraculeuses et exorcismes dans *l' Histoire Philothée* de Théodoret de Cyr" , *Revue de L' Histoire des Religions* 171(1967), pp.53-82 &pp.149-79.

Agathias , *The Histories* , trans. J.D.Frendo , New York , 1975.

Ammianus Marcellinus ,*The Later Roman Empire (A.D.354-378)* , trans. W. Hamilton , Penguin Books , London , 1986.

St . Artemios , *The Miracles of St. Artemios : A Collection of Miracle Stories by an Anonymous Author of Seventh-Century Byzantium* , trans. V.S. Crisafulli , Leiden – New York – Köln , 1997.

Baldwin , B., "The Career of Oribasius" , *Acta Classica* 18(1975) , pp.85-97.

Baldwin , B., "Malchus of Philadelphia" , *Dumbarton Oaks Papers* 31(1977), pp.89-107.

Baldwin , B., "Beyond the House Call : Doctors in Early Byzantine History and Politics" , *Dumbarton Oaks Papers* 38(1984) , pp.15-19.

Baldwin , B., "Eunapios of Sardis' , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II , Oxford , 1991 , pp.745-6.

Baldwin ,B., 'Aineias of Gaza" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I ,Oxford , 1991 , p.41.

Bakirtzis , C., "Pilgrimage to Thessalonike: the Tomb of St. Demetrios" , *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002) , pp.175-92.

Brown , P., "The Rise and Function of the Holy Man in Late Antiquity" , *Journal of Roman Studies* 61(1971) , pp.80-101, repr. Idem , *Society and the Holy in Late Antiquity* , Berkeley & Los Angelos , 1982 , pp.103-152.

Cameron , A., *Agathias* , Oxford , 1970.

Cameron , A., *Procopius and the Sixth Century* , London & New York , 1996.

Chronicon Paschale 284-628A.D , trans. M.&M. Whitby , Liverpool , 1989.

Constantelos , D.J. , "Byzantine Religiosity and Ancient Greek Religiosity", *The Past in Medieval and Modern Greek Culture* , ed. S. Vryonis (= *Byzantina Kai Metabyzantina* 1) , Malibu , 1978 , pp.135-151.

Cotter , W., *Miracles in Greco-Roman Antiquity : A sourcebook for the Study of New Testament Miracle Stories* , London , 1999.
Daras , M.D., & Eftychiadis , A.C., "Epilepsy in the Byzantine Empire", *American Academy of Neurology* 52/6-supplement 2 (12 April 1999) , pp.A72-A73.
Davis , S.J., *The Cult of Saint Thecla : A Tradition of Women s Piety in Late Antiquity* , Oxford , 2001.
Delehaye , H., *The Legends of the Saints: An Introduction to Hagiography*, trans. V.M. Crawford, University of Notre Dame Press, 1961.
إعتمد الباحث على النص الكامل لهذا الكتاب المنشور على موقع جامعة فوردهام :
http://www.fordham.edu/halsall/basis/delehaye-legends.html
Drijvers , H.J.W., "Hellenistic and Oriental Origins" , *The Byzantine Saint* , ed. S. Hackel , Birmingham , 1981 , pp.25-33.
Duffy , J., "Byzantine Medicine in the Sixth and Seventh Centuries: Aspects of Teaching and Practice", *Dumbarton Oaks Papers* 38(1984), pp.21-27.
St. Elisabeth the Wonderworker , Life of St. Elisabeth the Wonderworker , trans. V.Karras , *Holy Women of Byzantium : Ten Saints lives in English Translation* , ed. A-M. Talbot , Washington, D.C., 1996 , pp.117-136.
Eunapius , in : *The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire : Eunapius , Olympiodorus , Priscus and Malchus* , trans. R.C. Blockley , Liverpool , 1983 , pp.6-127.
Evagrius Scholasticus , *The Ecclesiastical History* , trans. M.& M. Whitby , Liverpool , 2000.
Festugière , A.J ., (trad.) , *Collections greques de miracles : sainte Thècla , Saints Côme et Damien , saints Cyr et Jean (extraits) , saint Georges* , Paris , 1971.
Foss , C., "Pilgrimage in Medieval Asia Minor", *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002) , pp129-151.
Garrison, F. H. , " The Byzantine period" , in : *An Introduction to the History of Medicine with Medical Chronology*, 2nd Ed. Philadelphia: Saunders, 1917 , pp. 104–109.
Gregoire, H., "Sainte Euphémie et l'empereur Maurice" , *Le Muséon* 59 (1946) , pp. 295-302.
Gregory, T.E., "Demetrios , Church of Saint" , T*he Oxford Dictionary of Byzantium* , I , Oxford , 1991 , pp.604-5.
Grierson, Ph., "The Tablettes Albertini and the Value of the Solidus in the Fifth and Sixth Centuries A.D.", *Journal of Roman Studies* 49/1-2(1959), pp.73-80.

Grierson , Ph., *Byzantine Coinage* , Washington D.C., 1999.
Griffith, S.H., "John of Ephesus" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II . Oxford . 1991 , p.1064.
Grossmann, P., *Abu Mina: A Guide to the Ancient Pilgrimage Centre* , Cairo , 1986.
Gurunluoglu, R., "Paulus Aegineta, A Seventh Century Encyclopedist and Surgeon: His Role in the History of Plastic Surgery" , *Plastic and Reconstructive Surgery* 108/7(December 2001), pp.7072-9.
Guthrie, W.K.C., *The Greeks and their Gods* , London , 1950.
Halkin, F., 'L hagiographie Byzantine au service de l' histoire" , *Proceedings of the XIIIth International Congress of Byzantine Studies* , London :Oxford University Press , 1967 , pp.345-354.
إعتمد الباحث على الترجمة الإنجليزية لهذا البحث :
Halkin, F., "Byzantine Hagiography in the Service of History" , trans. D. Jenkins . www.byzantine.nd.edu/Halkin.html
Haldon, J., "Supplementary Essay , The Miracles of St. Artemios and Contemporary Attitudes : Context and Significance" , *The Miracles of St. Artemios : A Collection of Miracle Stories by an Anonymous Author of Seventh-Century Byzantium* , trans. V.S. Crisafulli , Leiden – New York – Köln . 1997, pp34-73.
Halsall , P., "Byzantine Saint : A Bibliography" , www.unf.edu
St. John the Almisgiver , The Life of St. John the Almsgiver , in: *Three Byzantine Saints : Contemporary Biographies of St. Daniel the Stylite , St. Theodore of Sykeon and St. John the Almsgiver* , trans. E. Dawes , introductions & notes by N.H. Baynes , London , 1948.
إعتمد الباحث على النص الكامل لهذا المصدر المنشور على موقع : www.fordham.edu
John of Ephesus, *Ecclesiastical History* , *Revue de l' Orient Chretien* , 2(1897).
John of Ephesus, *The Third Part of the Ecclesiastical History of John of Ephesus* . trans.R.P.Smith , Oxford , 1860.
John of Ephesus , Lives of Sts. Mary and Euphemia , in : *Holy Women of the Syrian Orient* , trans. S.P.Brock & S.A.Harvey , Berkeley-Los Angeles- London , 1987 , pp.122-133.
Jones , A.H.M. , *The Later Roman Empire (284-602)* , vol.I , Oxford , 1964.
Kažhdan, A., "Byzantine Hagiography and Sex in the Sixth to Twelfth Centuries" , *Dumbarton Oaks Papers* 44(1990) , pp.131-44.
Kažhdan, A., "Chartoularios" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I ,Oxford . 1991, p.416.
Kažhdan, A., & Maguire , H.,"Byzantine Hagiographical Texts as Sources of Art" , *Dumbarton Oaks Papers* 45(1991), pp.1-22.

Kažhdan, A., & Ševčenko , N.P.,"Artemios", *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I , , Oxford , 1991 , pp.194-5.
Kažhdan, A., & Ševčenko , N.P., "Demetrios of Thessalonike" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I , Oxford , 1991 , pp.605-6.
Kažhdan, A., & Sherry , L.F., "Anonymous Miracles of St. Artemios" , *AETOΣ : Studies in Honour of Cyril Mango* , ed. I.Ševčenko & I. Hutter , Stuttgart & Leipzig , 1998.
Kislinger E., "Gynecology in Everyday Life in Byzantium" , *Proceedings of the First International Byzantine Symposium. The everyday life in Byzantium* , Athens: National Foundation for Scientific Research, 1989. p. 135–52.
Lascaratos , J., & Cohen , M., & Voros , D., "Plastic Surgery of the Face in Byzantium in the Fourth Century" , *American Society of Plastic Surgeons* 106/2 (August 2000) p.517.
http://www.medscape.com/medline/abstract/9734459?Src=emed_ckb_ref_0
Lascaratos, J., & Lazaris , D., & Kreatsas , G., "A Tragic Case of Complicated Labour in Early Byzantium(404 A.D.)" , *European Journal of Obstetrics & Gynecology and Reproductive Biology* , 105/1 (10 October 2002), pp.80-3.
Leonardo, R. A., "Byzantine surgery" , in : *History of Surgery* , New York: Froben Press, 1943 , pp. 69-79.
Leontius of Neapolis, A Supplement to the Life of St. John the Almsgiver written by Leontius Bishop of Neapolis in the Island of Cyprus , in : *Three Byzantine Saints : Contemporary Biographies of St. Daniel the Stylite , St. Theodore of Sykeon and St. John the Almsgiver* , trans. E. Dawes , introductions & notes by N.H. Baynes , London , 1948.
إعتمد الباحث على النص الكامل لهذا المصدر المنشور على موقع : www.fordham.edu
Magoulias, H. J., "The Lives of Byzantine Saints as Sources of Data for the History of Magic in the Sixth and Seventh Centuries A.D., Sorcery , Relics and Icons", *Byzantion* 37(1967), pp.228-69.
Magoulias, H. J.,"The Lives of Saints as Sources of Data for the History of Byzantine Medicine in the Sixth and Seventh Centuries" , *Byzantinische Zeitschrift* (1969) , pp.127-150.
Magoulias, H. J.," The Lives of Byzantine Saints as Sources for Byzantine Agrarian Life in the Six and Seventh Centuries" *Greek Orthodox Theological Review* 35/1(1990), pp.59-70.
Malchus, in : *The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire : Eunapius , Olympiodorus , Priscus and Malchus* , trans. R.C. Blockley , Liverpool , 1983 , pp.402-55.

Mango, C., "On the History of the Templon and the Martyrion of St. Artemios at Constantinople", *Zograf* 10(1979) , pp.1-13. (repr. : Idem , *Studies on Constantinople* , Aldershot , 1993 , no.XV).
Maraval, P., "The Earliest Phase of Christian Pilgrimage in the Near East(before 7th Century)" , *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002) , pp.63-74
St. Matrona of Perge , Life of St. Matrona of Perge , trans. J.Featherstone & C.Mango , *Holy Women of Byzantium : Ten Saints lives in English Translation* , ed. A-M. Talbot , Washington, D.C., 1996 , pp.13-69.
Menander , *The History of Menander the Guardsman* , trans. R. C. Blockley , Liverpool , 1985.
Moffatt, A., "Science Teachers in Early Byzantine Empire : Some Statistics" , *Byzantino Slavica* 24(1973) , pp.15-18.
Montserrat , D., "Pilgrimage to the Shrine of Ss.Cyrus and John at Menouthis in Late Antiquity" , *Pilgrimage and Holy Space in Late Antique Egypt* , ed. D. Frankfurter , Leiden , 1998 , pp.257-79.
Nesbitt, J.W. , "Introduction" , *The Miracles of St. Artemios : A Collection of Miracle Stories by an Anonymous Author of Seventh-Century Byzantium* , trans. V.S. Crisafulli , Leiden – New York – Köln , 1997 , pp.1-27.
Nilsson, M.P., *Greek Folk Religion* , Gloucester , Mass. , 1971.
Nutton, V., "From Galen to Alexander : Aspects of Medicine and Medical Practice in Late Antiquity" , *Dumbarton Oaks Papers* 38(1984) , pp.1-14.
Ozaslan, N., "From the Shrine of Cosmidion to the Shrine of Eyup Ensari" , *Greek , Roman and Byzantine Studies* 40 (1999) , pp.379-99.
Patlagean , E., *Pauvrete economique et pauverte social a Byzance , 4e-7e* siecles , Paris , 1977.
Patlagean, E.,"A Byzance : Ancienne hagiographie et histoire sociale" , *Annales* 23 (1968) , pp.106-126 , repr. Idem , "Ancient Byzantine Hagiography and Social History" , trans. J. Hodgkin , *Saints and their Cults : Studies in Religious Sociology , Folklore and History* , ed. S. Wilson ,Cambridge : Cambridge University Press , 1985 , pp.101-121.
Procopius , *The Buildings* , trans. H.B.Dewing & G.Downey , Loeb Classical Library 343 , Cambridge Mass. & London , 1971.
Prccopius , *History of the Wars* , trans. H.B.Dewing , Loeb Classical Library , Cambridge Mass. & London , 1992.
Procopius , *The Anecdota or Secret History* , trans. H.B.Dewing , Loeb Classical Library , Cambridge Mass. & London ,1993.
Santoni-Rugui, P., & Mazzola, R. , "Plastic surgery of the face in the fourth century (Letter)" , .*Plastic Reconstrution Surgery* 104(1999), p.883.

Scarborough, J., "Medicine" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II , Oxford , 1991 , pp.1327-8.
Scarborough, J., "Alexander of Tralles" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , I , Oxford , 1991 , p58.
Seiber, J., *The Urban Saint in Early Byzantine Social History*, BAR Supplementary Series 37 , Oxford , 1977.
Sozomen, *The Ecclesiastical History of Sozomen : Comprising a History of the Church from A.D.323 to A.D.425* , trans. Ch.D.Hartranft , Edinburgh , n.d.
إعتمد الباحث على النص الكامل لهذا المصدر المنشور على موقع :
http://www.vitaphone.org/history/sozomen.html
Talbot, A. M., 'Pilgrimage to Healing Shrines : The Evidence of Miracle Accounts" , *Dumbarton Oaks Papers* 56(2002) , pp.153-72.
Talbot, A. M., "Healing Shrines in Late Byzantine Constantinople" , The *"Constantinople and its Legacy"* Lecture Series. Toronto , 2000 , pp.1-24. (repr.: Idem , *Women and Religious Life in Byzantium* , Aldershot , 2001 , no. XIV).
Talbot, A. M., "Kosmas and Damian Monastery" , *The Oxford Dictionary of Byzantium* , II , Oxford , 1991 , p.1151.
Temkin , O., "Byzantine Medicine : Tradition and Empiricism" , *Dumbarton Oaks Papers* 16(1962) , pp.95-115.
St. Theodore of Sykeon , The Life of St. Theodore of Sykeon , in: *Three Byzantine Saints : Contemporary Biographies of St. Daniel the Stylite , St. Theodore of Sykeon and St. John the Almsgiver* , trans. E. Dawes , introductions & notes by N.H. Baynes , London , 1948.
إعتمد الباحث على النص الكامل لهذا المصدر المنشور على موقع : www.fordham.edu
كما اعتمد على الترجمة الفرنسية :
Vie de Théodore de Sykeôn , trad. A.Festugière , Bruxelles , 1970.
Theophylact Simocatta , *The History of Theophylact Simocatta* , trans. M.& M. Whitby , Oxford , 1986.
Vikan , G., *Byzantine Pilgrimage Art* , Washington , D.C., 1982.
Walter, Ch., *The Warrior Saints in Byzantine Art an Tradition* , Aldershot, 2003.
Woods, D., " Thessalonica s Patron : Saint Demetrius or Emeterius ?" , *Harvard Theological Review* 93(2000) , pp.221-34.
Zachariah of Mitylene , *The Syriac Chronicle* , trans. F.J. Hamilton & E.W. Brooks , London , 1899.

ثانيا . المصادر والمراجع العربية والمعربة :

- **الكتاب المقدس**
- **إيفانز أولبرى**، قديسو مصر حسب التقويم القبطى، ترجمة وتعليق ميخائيل مكسى إسكندر، القاهرة، ٢٠٠٠م.
- **بروكوبيوس**، التاريخ السرى، ترجمة على زيتون، دمشق، ٢٠٠٣م.
- **بول شينو دورليان**، القديسون المصريون، ترجمة ميخائيل مكسى إسكندر، القاهرة، ٢٠٠٢م.
- **دونالد نيكول**، معجم التراجم البيزنطية، ترجمة وتعليق حسن حبشى، القاهرة، ٢٠٠٣م.
- **السنكسار القبطى**، جزءان، مكتبة المحبة، القاهرة، ١٩٧٢م.
- **عبد العزيز رمضان**، "مدخل إلى مواقع الدراسات البيزنطية على شبكة الإنترنت"، حولية التاريخ الإسلامى والوسيط، المجلد الثالث، ٢٠٠٣م، ص٧٥-١٠٣.
- **عبد العزيز رمضان**، المرأة والمجتمع في الإمبراطورية البيزنطية، القاهرة، ٢٠٠٥م.
- **فايز يوسف محمد**، "حضانة المعبد في معابد بلاد الإغريق ومصر"، مجلة مركز الدراسات البردية والنقوش بجامعة عين شمس، العدد التاسع، ١٩٩٣.
- **قزمان وداميان**، المخطوط الأصلى لسير القديسين الشهداء قزمان وداميان، مكتبة المحبة، القاهرة، ٢٠٠٠م .
- **الموسوعة الطبية الميسرة**

http://www.wataan.com/tib/index.php?badre=4/12

- **يوحنا الأسيوى**، تاريخ الكنيسة، ترجمة صلاح عبد العزيز محجوب، القاهرة، ٢٠٠٠م.